17 em Année No. 840

Lundi — 8 — 8 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٨٤٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ شوال سنة ١٣٦٨ — ٨ أغسطس سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

١٤ ـ أمم حـائرة

الخـــاتمة

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

بالعدل ، وهو شريعة لا تناقض فيها ، ولا اضطراب ، ولا تخلف ، تسكن نفس العادل إلى طريق لاحبة ، وتطمئن إلى خطة بينة ، ويعلاها السلام . وكذلك تسكن وترضى وتطمئن أنفس الآحاد والجماعات التى يدبر العدل أمورها ، ويصرف شئونها ، فيسرى السلام فيها ويربط الوئام بينها ، ثم يشيع السلام والوئام فى أمور الجماعة جليلها ودقيقها ، كلها أو أكثرها ، والسلام هو سعادة الأحدان والجماعات ، وقوام الخير والشر بينها ، ووسيلة الصلاح والاستقامة فى كل أمورها . وقد سمى الله تعالى نفسه السلام . وفى القرآن الكريم : (والله يدعو إلى دار السلام) (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) .

فالإيمان بالله سبحانه يؤدى إلى العدل وفضائل أخرى كثيرة عظيمة . والعدل يؤدى إلى السلام ، والسلام قوام السعادة والطمأنينة فى نفوس الوحدان والجماعات .

فلهذا فليعمل العاملون ، وعلى هذه القواعد فليبن بناة الجماعات والأمم ، وهذه السبيل فليسلك دعاة الحق والخير ، وهذا النهج فلينهج المعلمون والمربون على اختلاف درجاتهم ، وأممهم ومواطنهم وعصورهم .

إن الناشىء فى هذا العصر تتلقفه آراء لم تحكمها الروية والتثبت ، وأقوال لم يزنها الصدق والإخلاص ، وأفعال لم يرد بها وجه الله . وتحيط به هذه الآراء والأقوال والأفعال أنى سار ، وتلزمه كل حين بما اخترع العلم من وسائل النشر والإذاعة . وهو هالك إن لم يدركه العقل والعمل .

وعلى قادة الرأى وأولى العلم أن يجنبوا النشء كل حين بكل وسيلة القلق والحيرة والزلل والشطط بهذه الآراء والأقوال والأفعال ، فى الدار والمدرسة وبالإذاعة والكتب والصحف ؛ وبكل ما هدى إليه العقل السليم والعلم الصحيح من وسائل .

إن هذا الصخب المحيط بنا ، وهذا القلق المستكن فى أنفسنا والظاهر فى كثير من معايشنا ونظمنا وشرائعنا وأمورنا ، وهذه الحيرة الدائرة بالناس على غير طريق إلى غير غاية ، وهذا التهاتر فى الأقوال ، والتخالف فى الأفعال ، كل أولئك مرده إلى فقد السلام فى النفس الواحدة ، وبين الأنفس المتعددة ، فى كل طائفة وكل قبيل وكل أمة ثم بين الناس أجمعين .

ولا سبيل إلى السلام إلا بالعدل يجمع الناس على شرائع من

الحق، وُسنن من الخير والبر، ويقيها الأهواء المتصادمة فى الأنفس المتنافرة ، والأحداث المتلاطمة فى الأمم المختلفة .

ومرجع العدل وأخوات له بها أمن الناس وائتلافهم وتوادهم وتعاونهم وأخوّتهم ، وفيها الخير العميم والسعادة الشاملة ، هو الإيمان بالله ، الإيمان الذى يعظم النفس كما قلت آنفاً ، ويجمعها ويرفعها عن الدنايا وعن سفساف الأمور وعن الأهواء وعن المادة إلى معالى الأمور وجلائلها ، وإلى الحق وإلى عالم الروح المتلائم المتناسق المطّرد المنسجم .

نحن فى عالم تتصادم آراؤه لأنها لا ترجع إلى أصل يوّحد بينها ، بل تنشأ عن نزعات ونزغات ؛ وتختلف أقواله لأنها لا ترجع إلى صلة يجمعها ويؤلف بينها ، وتتقاتل أعماله بما فقدت الحق والعدل ، والمعانى العامة ، والشرائع المادية الجامعة .

ولا منجاة من التصادم والتخالف والتقاتل إلا بالسمو عن الأهواء إلى الحق ، وعن الظلم إلى العدل ، وعن الأحداث الجزئية إلى القوانين الكلية . ولا يتسنى هذا إلا بالعلو إلى أصل الأصول وحقيقة الحقائق وهو الله تعالى مصدر الحق والخير والجمال والعدل والسلام وما يتصل بأولئك جميعها .

هذا الكلام الموجز عنوان لمعان لا تحد ، يعيا عنها البيان ، وتحسر فيها العقول والألسن والأقلام . وإنما هو إشارة إلى عالم فسيح ، للعقل فيه مَراد ، وللوجدان فى أرجائه مجال . فليفكر المفكرون ، وليتأمل المتأملون ، وليدعُ المصلحون ، وليضرب الأخيار الأمثال ، وليبين هذا للناس كل من أوتى نصيباً من العلم وحظاً من الرأى : غير آل جهداً ولا مقصّر فى فكر أو عمل حتى تستبين السبيل ويتضح النهج وتلوح الغاية ويستقيم المسير . والله ولى التوفيق .

* * *

أما بعد فهذه كلمات مخلصة لله ، اطرد فيها الفكر ، وفاض بها القلب فى غير تكلف ولا تزيّد ولا مراءاة .

وقد عرضت فيها أسباباً لقلق الناس وحيرتهم ، وشقاوتهم بعقولهم وأعمالهم ، وبما صنعت أيديهم، ووراء هذه الأسباب أسباب أخَر . وما أردت الاستيعاب والاستقصاء . وقد دعوت إلى أمور رأيتها طباً لهذه الأدواء ، وشفاء لهذه العلل ، ومعها أمور أخرى ، متصلة بها أو تابعة لها ، وما حاولت الاستقراء والاحصاء.

ولم يقف بالقلم عند هذا الحد بلوغ الغاية أو الإيفاء عليها ، ولا ضيق المجال ، ولا نضوب الرأى وقصور القول : بل وقف بالقلم طول الطريق وبعد الغاية ، وأنها سبيل يغنى فيها الإيجاز ، وتكفى فيها اللمحة والإشارة والدعوة والتنبيه والإيقاظ والتحذير . وكذلك وقف بالقلم الترويح عن القارئ والإشفاق من أن يمل من هذه السلسلة الطويلة وراء هذا العنوان الوحيد .

وإنى لأدعو كل مفكر وأحفز كل كاتب إلى أن يمنح هذا الموضوع بعض عنايته ، ويصرف له بعض وقته أداء للأمانة وقياماً بالواجب .

وعسى أن أعود إلى هذا الموضوع أو إلى موضوع يتصل به ويمت إليه .

والله نسأل السداد فى الرأى والإخلاص فى القول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عبد الوهاب عزام

أيتها الشمس ..

للأستاذ راجي الراعي

أيتها الجمرة البيضاء التي يسكبها لنا الله في وليمة الحياة ...

أيتها النقية الطاهرة التي لم تمسها يد بشر ... ولم يتسرب إليها لؤم الأرض ونفاقها ...

أيتها الكريمة الباسطة يدها لتصافح الخارجين من الظلمة ...

أيتها الجندية الأمينة الواقفة على باب السماء ...

أيتها الجبارة التي تحتل الخليقة ...

أيتها الساحرة التي علقت بأشراكها الأرض ...

أيتها الشعلة المتقدة في دماغ الأفق ...

أيها الثغر الجميل الذي يفترّ عن الشعاع ...

* * *

أيتها الشمس !

يا مصدر النور

ويا هدية السماء إلى الأرض

أيتها اليد الحمراء التي ترفع ستار الليل وتسدله والليل صاغر مطيع ...

أيتها الأميرة المتكئة على وسادة الفجر ...

أيها القلب المشتعل الذي يفيض حباً وحناناً ...

أيتها الناظرة إلى الأرض نظرة السيد القديم إلى العبد القديم

أيتها الرفيقة المخلصة الشريفة النادرة التي عاهدت الخالق أن ترافق الخليقة من يومها الأول إلى يومها الأخير ولم تنقض عهدها

أيتها الكرة النارية التي تتقاذفها القرون ...

* * *

أيتها الشمس !

يا ابنة الله ...

ويا صاحبة الجلالة

ويا فتنة الخليقة

ويا منارة الهدى

أيتها الفاتحة التي تغزو بأشعتها القاهرة ...

أيتها الضاربة خيامها في كل بقعة من بقاع الأرض ...

أيها الشلال الذي يتدفق نوراً من جبال الآلهة ...

أيتها الرقيبة التي ترقب الخلائق بعين لا تنام ...

أيتها المستحمة في البحور ، المرتدية حلة العذراء ، الضاحكة بأشعتها كالأطفال ، الواقفة مكانها لا تتزحزح عنه ، وقد سحرها جلال الله ...

أيتها الموزعة هداها على الضالين ...

أيتها المرأة التي اقترنت بالأفق ولم تخن رجلها ...

أيتها الأميرة الناصبة عرشها على رءوس الليالي ...

أيتها الدرة المستقرة في أعماق بحر الأثير ...

* * *

أيتها الشمس !

يا عين الله ...

ويا قلب الزمان ...

ويا كبد السماء ...

ويا ذروة الكمال ...

ويا حجة المؤمنين على الكافرين !

أيتها الأم الكبرى الحنون التي لم تستطع الأمومة في الأرض أن تجاريها في حنانها ...

* * *

أيتها الشمس !

يا معقل الكبرياء

ويا وطن الكهرباء

ويا عدوة الخبث والرياء

ويا رسولة المساواة والإخاء

ويا سيدة الفضاء

ويا علة الهناء والشقاء

لقد فررت من الأرض وأتيتك أسألك عن اليوم المتيد ...

هل أنت مقيمة على عرشك إلى الأبد ؟

أيطول أمر هذه الخليقة ؟

اكشفي لي سرك ... انت النور ... والنور فضّاح ...

ألم تسأم نفسك الشروق والغروب ؟

إلى متى نظل مسحورين بجمالك الذي لا يعدله جمال ؟

لقد أنهك السحر قوانا ...

إلى متى تأخذين منا لياليها وتعيدينها إلينا ؟

لقد حار فيك الليل !

إلى اللقاء

للأستاذ كامل محمود حبيب

« إلى أبنائي الذين أحسوا لذع الفراق يوم الوداع الأول ، وهم ما يزالون أطفالا ، فاغرورقت عيونهم بالعبرات ، ثم كفكفوها لأنني قلت لهم : يا رجال ! »

إلى اللقاء ، يا بني ، هناك على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني اللهو والمرح .

إن الإنسان ليحن – دائماً – إلى حيوانيته الأولى فيسعى ليتحلل من أعباء الرزانة والعقل وليحطم أغلال الإنسانية حين يحس أنها قد كبلته بقيود من الجدار والثوب .

يا لبؤس الحيوان حين تعصره الزريبة بين جدرانها فلا يستطيع أن ينفلت منها إلى الحقل ... إلى العشب والنور والشمس والهواء ! ويا لشقاوة الطير حين يضغطه القفص بين قضبانه فلا يجد السبيل إلى روح الغابة ... إلى الحرية والسعادة والجمال !

هناك على شاطئ البحر ، عند الربيع الأزرق ، يخلع المرء ثوبه فيخلع إنسانيته ليستمتع حيناً بالحيوانية ، وينبذ عقله لينعم بالجهل ، وينزع عن صوابه ليسعد بالحمق .

وأنت – يا بني – طفل يلذ لك أن تنطلق إلى طفولتك لا يربطك قيد ولا يمسكك غل ولا يحدك عقل .

فإلى اللقاء ، يا بني ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية في معاني اللهو والمرح .

* * *

أتذكر – يا بني – يوم أن جاء خالك يطلب إليّ أن أدعك تصحبه إلى الأسكندرية فتشبثت بي ترجوني ، لأنه شاقك أن تمرح على شاطئ البحر مرة أخرى . ونزلت أنا عند رأيك الفطير ، رأي الطفولة الوثابة ، لأنني خشيت أن يضربك الأسى والحزن وأشفقت أن تمصف بك معاني الخيبة واليأس ، فتستشعر الصغار والذلة وأنت ما تزال غض الإهاب لين العود لدن المعظم

لقد كان بودي أن أرافقك لولا غل الوظيفة وشواغل العيش وعنت الصيام ، فبقيت أنا هنا – في القاهرة – ترمضني الهاجرة ويمضني الفراق . ونسيت أنني سأجد فقدك لاذعاً في قرارة نفسي ولبثت ليلتك تهيئ حاجاتك ، وإن إهابك ليكاد ينقد من شدة الطرب والسرور . وأرغمتني على أن أشاطرك فرحة نفسك فنبرت حيناً طفلا كبيراً قد وخطه الشيب وهدته السنون يعبث بين أطفال صغار . واستشعرت اللذة والسعادة فاندفعت أرتب لك حاجاتك بين المزاح والدعابة . ثم انحلت عزيمتك وكلّت قوتك ، فانحططت في فراشك تغط في نومك ، ووقفت أنا إلى جانبك أتملى سمات البهجة وقد رسمها الأمل الحلو على قسمات وجهك النائم !

وفي القطار أقبلت أقبلك قبلة الوداع ، فأحسست أنت مرارة الفراق ، فاغرورقت عيناك بالدمع وشرقت بالكلمات ، وأوشكت عواطفك أن تثور ، فتشبثت بي وقد طغت مشاعرك الطاهرة على نوازع طفولتك وهي تدفعك إلى البحر . ولكنني قلت لك : « ما ذا جرى ، يا رجل ؟ » ... فكفكفت عبراتك وتماسكت وكتمت خفقات قلبك النقي ، ثم تعلقت عينك بي فما تطرف حتى تحرك القطار ، وتواريت أنا عن ناظريك ...

لشد ما حز في قلبي أن تحمل نفسك على أن تكفكف عبراتك الرقراقة التالية ، يا بني ، لتبدو رجلا قبل الأوان !

آه ، يا بني ، لقد كانت هذه الكلمة – كلمة الرجولة – شديدة الوطأة على نفسك لأنها حمّلت طفولتك فوق الطاقة ، وكلفتها فوق الجهد ، ولكن ...

إن جلالك لاحد له ولا يفوقه جلال وقد تاه به كاهل الخليقة الضعيف ...

* * *

أيتها الشمس المشرقة عليّ اليوم ...

هل أنت تلك الشمس التي أشرقت على الرجل الأول ؟

هل نورك اليوم كنورك بالأمس ؟

هل أنت تلك التي عرفتها القرون الأولى ؟

أم أن العمر فمل فمله نخف ضرامك واعتراك العياء ؟

اكشفي لي سرك ... أيتها الشمس ...

إن لك الملايين من الأشعة ... فانفذي إليّ شعاعاً واحداً يهمس في أذني كلمة السر ويمحي ... !

راجي الراعي

ولكن إلى اللقاء ، يا بنى ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية فى معانى اللهو والمرى !

* * *

لقد عودتك ، يا بنى ، أن أفسح صدرى لطهر الطفولة وسخفها ، وأن أسمع عبثها وعبوثها ، وأن أتقبل نزواتها وطيشها ، وأن أستسيغ حلوها ومرها ، فلا تنفض طفولتك كلها أمام خالك فيحس الجفوة ، أو يستشعر الضيق ، أو يجد الملل !

وإذا ربّت على كتفك فى عطف ، أو قبلك فى حنان ، أو ضمك فى شوق ، فلم تحس لين كفه ، ولا حرارة قلبه ، ولا دفء صدره ، فلا تمتعض ولا تتململ ، لأنك لن تلمس اللين والحرارة والدفء إلا فى رجل واحد هو أنا ... لأننى أنا أبوك !

وإذا طلبت إليه أمراً فأغضى عنك ، أو امتهن رغبتك ، فلا تحزن لأننى أنا وحدى الذى لا أضيق بحاجاتك ولا أسخر من نزواتك ... أنا أبوك !

وإذا ابتسمت فعبس أو عبست فابتسم ، فلا تأس لأننى أنا وحدى الذى أشاطرك سرورك وحزنك ، وأشاركك مرحك وشجوك . . أنا أبوك !

وإذا افتقدتنى — على حين فجأة — فضاقت نفسك بالحياة وهى تتألق فيك ، وعزفت عن اللذة وهى تضطرم فى قلبك ، فلا تدع شجونك تستلبك من سعادتك وأنت على شاطئ البحر كالفراشة الطروب تطير وتقع فلا تقع إلا على مرح وبهجة !

وإذا أحسست بالغربة والضياع فلا تضق بما ترى ولا تفزع مما تجد ، فغداً أكون معك !

وإلى اللقاء ، يا بنى ، على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية فى معانى اللهو والمرى !

* * *

لست آسى ، يا بنى ، على عمر مضى خلواً من نبضات القلب ، ولا على شباب انطوى صفر من دفقات الهوى ، لأنك أنت أفعمت قلبى بالحب والأمل والحياة جميعاً !

فأنت النبتة اليانعة النضيرة فى صحراء العمر ، وأنت الزهرة الرفافة الزاهية فى بيداء الحياة ، وأنت النشاط فى زمن الخمول ، والقوة فى سنى الضعف ، والخلود فى دنيا الفناء !

وأنت نور العين إن أظلمت الحياة ، وانطوت زهرة الشباب ، وأنت بهجة القلب إن ذوى العود ووهى الجلد ... إن أوشكت القدم أن تنزلق إلى طريق الأبد !

وأنت عمرى الدائم ، وصوتى المدوى ، وحكمتى الأبدية ، وروحى الخالدة !

فدعنى ، يا بنى ، أوقع على أوتار القيثارة الإلهية — قلبى — لحن الحنان الأبوى الذى فاضت به مشاعرى يوم أن دفعنى العطف لأنزل عند نزوات طفولتك الطائشة ، فافترقنا لأول مرة !

إن ألحانى شجية آخاذة ، غير أن عقلك الغض لا يدرك معناها ، فأنت ما تبرح فى جهلك الأول ... ولكن حين تصقل السنون عقلك ، وتشحذ الأيام ذهنك ، فيستقيم منطقك ، ويستد رأيك ... حينذاك أجلس إلى نفسك ، وأستشف — فى إمعان — ما وراء هذا النغم الحى ...

لقد رأيت يا بنى — ذات مرة — رجلاً يضن على صغاره بالضئيل ويبخل بالتافه ، ولكننى رأيت — أيضاً — الحيوان يطعم صغاره ويستمرئ هو المسغبة ، ورأيت الطير يزق فراخه ويستعذب المخمصة !

آه ، يا من أفنيت عمرك صعلوكا فى دنيا العزوبة !

لقد سفلت حين نبذت معانى الأبوة فى نفسك ، وصغرت حين مسحت على آثار البنوة فى دارك ، وانحططت حين استعبدت لأنانيتك الوضيعة !

يالحكمتك أيها الفلاح الساذج حين ذهبت تجتث جذور الشجرة التى لا تثمر ولا تفىء الظل !

ويا بنى ، لا تجزع إن تراءت لك كلماتى فوق عقلك الصغير ، وبدت لك خواطرى فوق قلبك الغض !

فإلى اللقاء على سيف البحر حيث تموج الدنيا بفلسفة الحرية فى معانى اللهو والمرى ...

وإلى اللقاء حين تصقل السنون عقلك وتشحذ الأيام ذهنك فترقى إلى المعانى السامية التى يفيض بها قلب أبيك الكبير ، وهى تتدفق بالعطف والحنان ...

كامل محمود حبيب

قناة السويس ومستقبلها (*)

للأستاذ أحمد رمزي بك

حديث الليلة ، يتناول قناة السويس ، وموقع مصر الممتاز باعتبارها صاحبة هذا البرزخ ، الذي كان يفصل بين البحرين قبل افتتاح القناة .

١ — ولبيان أهمية هذا الموقع ، أعرض عليكم تاريخين مهمين :

في ٧ مارس سنة ١٩٤٩ وقعت الحكومة الملكية المصرية اتفاقاً مع شركة القناة بعد مفاوضات ومباحثات قامت بها وزارة التجارة والصناعة : وهو اتفاق تناول أقطاب الوزارة نصوصه وبنوده بأحاديثهم ، وأبانوا ما حصلت عليه مصر من مزايا وما حققته لنفسها من أهداف : وبعد إتمام هذا الاتفاق عملاً وطنياً كبيراً يصح لوزارة التجارة والصناعة أن تفخر به ، وهو عمل معروض الآن على الهيئات التشريعية للبلاد لإقراره والتصديق عليه .

وفي ١٧ مارس سنة ١٩٦٨ ينتهي عقد الامتياز الممنوح للشركة .

٢ — وبين هذين التاريخين تقع فترة من الزمن تقرب من عشرين عاماً ، تحتم علينا أخذ الأهبة والاستعداد لتسلم هذا العمل العظيم حتى ننهض به ونتحمل أعباءه أمام العالم . وبالتوقيع على الاتفاق أصبحنا شركاء لحد ما مع الشركة نقاسمها وتقاسمنا المغانم والأعباء ونعمل معها على قواعد أكثر ملاءمة لنا مما عهدناه من قبل وفي فترة تحضّر لتمصير القناة وجعلها مشروعاً قومياً صميماً .

٣ — فهل لنا أن نتساءل ، ماذا أعددنا لهذا اليوم ؟ أما من الناحية الإدارية والفنية ، فأعتقد أن مصر لن تعجز عن إخراج الفنيين والإداريين الذين يتولون هذا العمل ويثبتون كفايتهم وجدارتهم على صيانة هذا الطريق المالي : أما من ناحية المستقبل الذي يحيط بالقناة وما يتبعها من تأثر موقع مصر الجغرافي الممتاز ، فهذا الذي يحملنا نفكر تفكيراً منطقياً يتفق مع ما يحيط بنا من أحداث وما يغمر الدنيا من اتجاهات وتطورات ، أخشى أن تؤثر في أهمية القناة وموقعنا الجغرافي ، أو تساعد على الإقلال مما كان لهذا الموقع المالي يسبغه علينا من مظاهر احتكار إحدى طرق المواصلات العالمية .

٤ — إننا لا ننسى أن مصر تعرضت مرتين وسط كل من الحربين العالميتين في القرن العشرين لهجومين يرمي كل منهما إلى انتزاع هذا الموقع الجغرافي الهام . ففي سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ تعرضت القناة مباشرة لهجوم من جانب الجيش التركي ، وإذا من ضفة القناة الشرقية تبدأ حملة الهجوم المضاد الذي اقتحم سينا وفلسطين وسوريا ولبنان وانتهى عند جبال طوروس سنة ١٩١٨ .

وفي سنتي ١٩٤١ — ١٩٤٢ تكرر الهجوم من ناحية الصحراء الغربية ووجهته منطقة القناة ، والذي ساعدته الظروف لزيارة هذه الجهة أيام معارك العلمين كان يرى التجمعات التي أتت تترى من قوات الجيش التاسع وأخذت أماكنها على الضفة الشرقية لقبول المعركة إذا قدر لقوات المحور اقتحام استحكامات الدلتا ووصولها إلى منفذنا في قناة السويس .

فهذه الجيوش التي تجمعت في الحرب العالمية الأولى والثانية كانت تقصد بهجماتها قناة السويس وانتزاع هذا الموقع الهام باعتباره الشريان الحيوي الذي يربط القارات الثلاث ، وجاءت هزيمتها في العلمين بهجوم مضاد استمر حتى تونس في الحرب الأخيرة ١٩٤٢ .

فالذي يسيطر على القناة ، يسيطر على مقدرات الحروب وتوجيهها وانتصاراتها ، ويفرض على خصمه ما شاء من القرارات الحاسمة التي يتوقف عليها مصير الحروب ونهاية المعارك : ونحن إزاء هذه الأهمية نرجو ألا يشاركنا غيرنا بامتلاك طريق عالمي آخر يقلل من أهمية هذه المنطقة في يوم من الأيام .

٥ — هذا ما لمسناه في السنوات الأخيرة ، أما في الماضي فقد لعب هذا الموقع الجغرافي لمصر صاحبة السيادة على برزخ السويس دوراً هاماً في حياتها ، إذ جعلها صاحبة احتكار الطرق البرية والبحرية بين الشرق والغرب .

ففي القرون الوسطى ، كانت مصر تحتل مكاناً مرموقاً في

(*) الحديث الذي ألقاه حضرة الأستاذ أحمد رمزي مراقب مصلحة التشريع التجاري والملكية الصناعية من محطة الاذاعة اللاسلكية في يوم ١١ أبريل سنة ١٩٣٩

اقتصاديات العالم المعروف وقتئذ . وكانت تجارة جزء كبير من الدنيا يمر من البحر الأحمر عبر مصر إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط ، وكانت مراكز التجارة فى إيطاليا تشارك مصر فى هذا الاحتكار وخصوصاً مدينة البندقية .

٦ — وما كاد يكتشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند حتى فقدت مصر أهمية موقعها الجغرافى الممتاز الذى كان يدرّ الخير عليها ، ولم تقبل مصر أن تقف موقفاً سلبياً بل أرسلت حملات بحرية إلى آسيا عن طريق برزخ السويس وساعدها فى ذلك حلفاؤها من البنادقة ، وكان القصد منها رد غائلة البرتغاليين عن الهند . وأراد هؤلاء أن يهاجموا مراكز مصر فى البحر الأحمر فتعرضت سواكن وغيرها لحروبهم ، واستمر هذا النزاع حتى العهد العثمانى .

٧ — وفى عدد المجلة الجغرافية الأمريكية بواشنجتن ، مقال تحدث فيه كاتبه عن أثر التوابل فى اكتشاف طرق الملاحة وفى خدمة علم الجغرافية العالمية ، ويفهم منه أن مصر بحكم سيطرتها على هذا الموقع الجغرافى ، كانت تسيطر أيضاً على تجارة التوابل ، وأن هذا الاحتكار للطرق المائية أدّى فى النهاية إلى اندفاع الدول البحرية نحو اكتشاف آفاق بعيدة وطرق مواصلات تقلل من أهمية هذا المركز الممتاز وتضعف من أثر هذا الاحتكار

وتنتهى هذه الاكتشافات العظيمة بأن تفقد مصر هذا المركز الذى كان يدر عليها الخير ، وتهبط أهمية البندقية وجنوة وغيرها وتصبح ثغوراً من الدرجة الثانية بعد أن كانت دولاً مستقلة فيها مستودعات التاجر ومراكز الثروات المالية .

٨ — وهانحن اليوم نواجه عهداً يذكرنا بتلك الأيام البعيدة : إننا نرى أمامنا تقدماً بعيد المدى وانقلاباً شاملاً فى طرق المواصلات الجوية والبرية والبحرية التى تربط أنحاء الأرض .

ونعيش فى زمن ملىء بالأحداث الكبرى والتطورات السريعة وأرى فى الآفاق المحيطة بنا قوات قد اتجهت إلى البناء والخلق والإنشاء وهى تعتقد أن عمل المعجزات ممكناً وأنه بوسعها إحياء الموات من الأرض ونقل السكان وإجلائهم عن مواطنهم . ونشعر بأن الشرق الأوسط يتمخض عن تطور وتغيير شامل[1] .

٩ — فمن ناحية المواصلات يتحدثون عن طرق القوافل القديمة التى كانت تخترق الصحارى ويؤملون فى إعادة تعبيدها حتى تستعمل لنقل البضائع ، ويتحدثون عن العقبة وأثرها ومستقبل خليجها ، ونسمع عن طرق حديدية توضع على الخرائط ثم تنفذ مشاريعها ، ونرى أنابيب البترول تأتى من الأماكن البعيدة لتصب فى أماكن معينة[1] ، ونسمع عن موانئ وثغور توسع وتفرض نفسها على هذا الجزء من شرق المتوسط .

١٠ — وقد يبدو هذا لأول وهلة صعب التحقيق ولكن المطلع على ما كان عليه الشرق من عظمة وحضارة وغنى لا يعجب أن يسمع فى القريب العاجل بعودة العمران إلى هذه المناطق ، ويكفى أن نستعيد ما كانت عليه مدينة أنطاكية فى العصور السالفة لنعرف شيئاً مما يخبئه المستقبل لثغر مثل حيفا يطل علينا .

١١ — إنه من أصعب الأمور مواجهة المستقبل على قياس الحاضر ، كما أنه من أخطر الأمور الاكتفاء بنظرتنا القومية بل يجب أن نتبعها بنظرة عامة لما يدور حولنا .

ولهذا نقول أن منطق الحوادث الدائرة حولنا يحتم علينا دراسة مستقبل قناة السويس دراسة علمية ، لا من ناحية المصلحة المحلية وحدها ، بل على ضوء التطور العالمى وما يدور فى بقاع هذه المنطقة المحيطة بنا والتى تحاول أن تشاركنا فى مركزنا الممتاز

١٢ — إننا فى حاجة إلى عدة مشاريع إنشائية : أهمها توسيع الموانئ المصرية فى بور سعيد والسويس ، وإنشاء مناطق حرة متسعة ، وفى وضع شبكة من المواصلات البرية السهلة من الشرق إلى القناة ومن الغرب إليها ، وفى حاجة لسياسة عامة للخطوط الحديدية حول القناة ، ثم فى حاجة إلى عدد من المطارات الكبرى والمحطات المائية التى تسمح بهبوط أى نوع كبير من الطائرات فيها .

١٣ — إن تطور مصر سيفرض نشر العمران فى سينا ، ومصلحة القناة تحتم إنشاء منطقة صناعية كبرى فى المثلث الذى تشغله المعسكرات البريطانية : لأن توسع الصناعات الكبرى يفرض من المبدأ أن تكون على الطرق المائية .

هذه نظرة لمستقبل القناة فى السنوات القادمة إذا أخذنا بها نقول : أن مصر قد انتقلت من الزمن الذى كانت معدة فيه لخدمة القناة ودخلت العهد الجديد الذى يضع القناة فى خدمة مصر

أحمد رمزى

(١) يقصد الكاتب ظهور دولة إسرائيل فى الشرق .

(١) أشارت البرقيات الخارجية لل أثر هذه الأنابيب فى دخل قناة السويس .

خلف الرداء الجامعي

للأستاذ أبي حيان

لم أكد آخذ في قراءة كتاب « الهجاء والهجاءون في الجاهلية » للدكتور م. محمد حسين المدرس بجامعة فاروق الأول ، وأتجاوز الفقرات الأولى منه ، حتى وقفتني هذه العبارة التي يقولها في سياق الكلام عن تصنيف الشعر العربي ونصيب أبي تمام من ذلك في حماسته . قال :

« أما أبو تمام ، فهو يخرج الأبيات في كثير من الأحيان عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها . وقد لاحظ هذا الخلط بعض المتقدمين كصاحب اليتيمة » (ص ٣) .

وقفتني هذه العبارة وصرفتني عن المضي في القراءة ، إذ أحسست فيها — لأول وهلة — نوعاً من التناقض الصارخ يشيع فيها ، ويباعد بين طرفيها ، ويضرب بعضها ببعض . صاحب اليتيمة يعرض لأبي تمام في يتيمته ، وينقد منهجه في حماسته ، إذ يلاحظ عليه خلطه الأبواب بعضها ببعض ؟ !

هذا هو العجب العجاب الذي لفتني إليه لفتاً شديداً ، ووقفني عليه وقفاً طويلاً ، وأنا أحاذر ألا يكون طرفي ضل فيه ، أو تاه عقلي في إدراك مراميه ومغازيه ، إلا أن العبارة — كما نرى — يسيرة صريحة مستوية لا عوج فيها ولا أمت . فما لليتيمة وأبي تمام ، وأين يمكن أن يقع منها ؟ وكيف له أن يقتحم نطاقها ولم يتجاوز الثعالبي بها الشعراء المعاصرين ، أو على حد قوله — في تحديد موضوعها — : « نجوم الأرض من أهل العصر ، ومن تقدمهم قليلا وسبقهم يسيراً » ؛ ومن هنا كانت تسميتها : « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » . وعصر الثعالبي هو ما بين منتصف القرن الرابع وأوائل القرن الخامس . فكيف أمكن لأبي تمام من أهل القرن الثالث ، بل أوائل ذلك القرن ، أن يطوى الزمن ، ويتخطى أعناق الأجيال ، ثم ينضو عنه الكفن ، وينفض عنه ركام التراب ، ثم ينتفض قائماً ، ليستوى ماثلا بين أصحاب الثعالبي ورجال اليتيمة ؟ !

أليس هذا عجباً عاجباً جديراً بأن يشتت الذهن ويستغرقه ، ويثير بعض ألوان الإعجاب بهذه الجامعية الجديدة القديرة على « الخلق الفني » ، والجمع بين الأشتات والأضداد ؟ !

بلى ! وتلك هي الأعجوبة التي ساورتني وملكت على مذاهبي منذ نظرت في تلك العبارة السالفة . وقد جعلت الحيرة تشيع في نفسي : بين ما كنت أحسبه حقائق مقررة ، وصفات ثابتة محررة ، وبين ما ينبغي أن توحي به الجامعية من ثقة ، وما يفترض أن تقترن به في الذهن من ضبط ودقة ، وما تدعو القارئ أو الدارس إليه من طمأنينة وإيمان ، ومن تسليم وإذعان . فبأيهما آخذ ، وإلى أيهما أطمئن وأسكن ، إلا أن يتحقق الإعجاز ، وتلتحق الأوائل بالأعجاز . وهكذا جعلت أسائل نفسي : أو يمكن لهذه الجامعية الجديدة أن تغير طبائع الأشياء ، وأن تبدل الأرض غير الأرض والسماء ، وتنسخ قوانين الوجود فتضع من تشاء حيث تشاء وأيان تشاء ، فتنشر أبا تمام بين ناس غير ناسه ، وفي زمان غير زمانه ؟ !

وبعد ، فهاهنا إذن نوع من الاستحالة الظاهرة في نسبة هذه الملاحظة إلى صاحب اليتيمة ، وهي — كما رأينا — استحالة لا مساغ لها إلا على ذلك المذهب العابث ، فكيف تأتى للأستاذ الدكتور ذلك ؟ وأنى صدر بهذه النسبة الغريبة التي كان يجب أن تلفته لو أنه وقع عليها على ما فيها من غرابة على الأقل ؟ !

إن تتبع هذه المسألة يثير بين أيدينا لوناً من ألوان الطرافة بديعاً ، فلم يضن علينا الأستاذ الفاضل ببيان المصدر الذي صدر بتلك الملاحظة عنه ، وإن كان هو لا يعبأ في كثير من الأحيان بالتنبيه إلى مصادره ، فأثبت في الهامش تعليقاً على تلك العبارة الآنفة : « تاريخ آداب العرب للرافعي ٣ : ٣٦٦ نقلا عن اليتيمة ٣ : ٤١٦ » .

وهكذا تكون — والله — الدقة الجامعية والأمانة العلمية ! تاريخ آداب العرب عن اليتيمة ! عنعنة جديرة بالبحوث العلمية الجامعية !

على أنه ينبغي أن تكون اليتيمة هذه مصدراً نادراً أتيح للأستاذ الرافعي أن يطلع عليه ، ويرجع إليه ، ويصدر عنه بتلك الملاحظة ، ثم تقطعت أسبابه ، وغاب عن حياتنا الأدبية وجهه ، فلم يبق لنا من ذلك إلا ما نقل الرافعي عنه .

هكذا يجب أن يكون الأمر لتكون لهذه المنمنة قيمتها ، إذ كان من الأوليات المقررة فى أسلوب البحث العلمى أن يكون النص فى مصدره الأصلى هو الذى لا معدل عنه ، ولا مترخص فى التزامه ، ولا سبيل إلى تجاوزه أو المسامحة فيه ، ما دام ذلك المصدر الأصلى ممكناً بأى وجه من وجوه الإمكان ، فلا بد إذن أن تكون اليتيمة مصدراً غير ممكن .

- أفكذلك هى ؟

أما أن اليتيمة ليست مصدراً ممكناً فحسب ، ولكنها مصدر قريب ميسور حاضر ، فقد طبع غير مرة فى دمشق والقاهرة ، ولم يبعد العهد بعد بطبعته الأخيرة . ويستطيع أى إنسان — دون أن يكون أستاذاً جامعياً تفتح له خزائن الكتب وتتاح له ذخائر الآثار — أن يمد يده إلى أية دار من دور الكتب ، أو أى دكان من دكاكين الوراقين ، فإذا به بين يديه . فكيف ساغ للأستاذ الباحث أن يتجاوز هذا المصدر الأصلى ، وهو — كما رأينا — قريب حاضر ، إلى مصدر آخر غير مباشر ؟ وكيف أجيز له فى رسالة جامعية أن ينكب عن هذه السبيل العلمية المعهودة ، وأن يتحدى على هذا النحو أوليات البحث المقررة ؟

وقد فعل الأستاذ هذه الفعلة مرة أخرى ، بالنسبة لكتاب ككتاب اليتيمة ، ذيوعاً وقرباً ، وهو أمالى الشريف المرتضى ، فقد تجاوزه فى نص من نصوصه نقله فى كتابه (ص ٥٩) ، فلم يتكلف الرجوع إليه والأخذ مباشرة عنه ، وإنما اكتفى بأن ينقله من كتاب الرافعى أيضاً !

فما ذا عسى أن يسمى هذا الصنيع الذى يصر عليه صاحبه إصراراً ، ويكرره تكراراً ، وبأى وصف يمكن أن يوصف ؟ وما ذا يرى الجامعيون فى هذا المنهج العلمى الجديد الذى يؤثر الدعة ، ويأخذ الأمور من حيث تتفق لا من حيث يجب ، ويحسب أنما يكفيه فى تحقيق الصورة العلمية أن يورد هذه المنمنة التى لا معنى لها ، إلا أن يكون القصد إلى شىء من الخداع الرخيص المفضوح ؟ !

ومع ذلك ، فهذا الخطأ المنهجى ، وذلك التحدى لقواعد البحث الأولية ، أو ذلك الإهمال والاستخفاف بما يجب للعلم والصفة الجامعية الصحيحة من حق وحرمة ... كل ذلك ليس شيئاً كبير الخطر بالقياس إلى ما وراءه من منكر علمى لا ندرى كيف أباحه الأستاذ لنفسه ، وكيف أجازته له الجامعة وأجازته عليه :

الرافعى — بمقتضى ذلك التعليق المنمن — هو المسؤول المباشر عن تلك الإحالة الظاهرة فى نسبة القول فى حماسة أبى تمام إلى صاحب اليتيمة ... هكذا جعله الأستاذ — غفر الله له — فى سذاجة وغفلة ، وبذلك مثله أمام القارئ المتفحص أدنى تفحص فى مظهر شائن من الجهالة بالتاريخ الأدبى ، والإغفال لجانب التحقيق العلمى .

والذين يعرفون الرافعى — رحمه الله وأكرم مثواه — يعلمون علم اليقين أنه كان من سعة العلم وقوة العقل ، ونفاذ البصر فى حقائق التاريخ الأدبى ، ورهافة التذوق لأسراره ، والإحاطة التامة بأطرافه المختلفة ، والدقة العلمية البالغة ، وقوة الشخصية والضمير العلمى الذى لا تتطرق إليه الشبه ، بحيث لا يمكن أن يتورط فى مثل هذه الإحالة ، فيضع أبا تمام بين رجال اليتيمة .

وكذلك كنت مستيقناً منذ أول وهلة أن هذه النسبة إلى الرافعى لا يمكن إلا أن تكون مدخولة ، وأنه قد أصابها — ولا ريب — نوع من أنواع التزوير ، أو فسرت على لون من ألوان التحريف والتحوير ... ومعذرة إلى سيدى الأستاذ — غفر الله لنا وله — فالذى استشعرته سلفاً حققته المراجعة ، وها هوذا نص الرافعى — كما جاء فى كتابه تاريخ آداب العرب — :

« وقد انتقد كتاب الحماسة حمزة بن الحسين ، فزعم أن فيه تكريراً وتصحيفاً وإيطاء وإقواء ، ونقلا لأبيات عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها ، ولا تصلح لها ، إلى ما سوى ذلك من روايات مدخولة ، وأمور عليلة » .

هذا هو كلام الرافعى بنصه عن حماسة أبى تمام ، وقد صدر به عن رسالة لأبى الحسين أحمد بن فارس ، أوردها صاحب اليتيمة فى سياق ترجمته له بين رجال « الجبل » ، فليت شعرى كيف استطاع الأستاذ الفاضل أن يفهم من هذا النص ما قرره من أن صاحب اليتيمة هو الذى لاحظ على أبى تمام أنه « يخرج الأبيات فى كثير من الأحيان عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها » ؟

كيف جاز هذا الفهم فى نص صريح مستقيم هين قريب ، لا عوج فيه ولا غرابة ولا تعقيد ، إلا أن تبطل العلاقة بين اللفظ

والمعنى ، وتنقطع الصلة بين الدال والمدلول ، وتصبح اللغة عبثاً وباطلا ، أو هذياناً لا مؤدى له ؟ ليس فى هذا النص إشارة ما إلى صاحب اليتيمة ، فمن أين جاء به ؟

هذا هو الأمر الذى يغمرنى بالحيرة من جميع جوانبى ، إذ لا أستطيع أن أجد له تعليلا ، أو أنفذ فيه إلى تأويل ، مهما ساء ظنى بالقيم الجامعية الجديدة فى هذه السنوات الأخيرة ، منذ وقعت فى ذلك الكتاب على ست الأبيات التى عرضت لها فى (الرسالة) من قبل(١) ، وعرفت بها كيف يفهم الشعر القديم فى هذه الأيام ، وكيف تدرس النصوص الأدبية فى بعض حلقات الجامعة !

ولكن الأمر لم يعد — فيما يبدو — قاصراً على النصوص الأدبية التى تحتاج فى درسها إلى ألوان من الثقافة مختلفة ، فقد أصبحت النصوص التقريرية أيضـاً موضع خلط فى فهمها والاستدلال بها ، فهل فى هذا النص الذى بين أيدينا أية علاقة أو شبه علاقة بينه وبين ما فهمه الأستاذ منه ونسبه إليه ؟ لا شىء من ذلك مطلقاً ، إلا أن يكون قد خيل للأستاذ الفاضل أن حمزة بن الحسين المذكور فى النص هو صاحب اليتيمة . ونعوذ بالله ونبرأ إليه أن يذهب بنا التشاؤم وإساءة الظن إلى هذه الغاية المنكرة !

فهذه سلسلة من الأخطاء يأخذ بعضها برقاب بعض فى نقطة واحدة بعينها لم نتجاوزها إلى غيرها ، وكلها أخطاء غليظة فاحشة تبعث الفزع وتثير الرعب من هذا المنحدر السحيق الذى يبدو لنا — من خلال هذه النظرات — أن القيم الجامعية التى ظلت الجامعة زماناً حفية بها ، حريصة عليها ، قد أخذت تتهاوى فيه ، ويوشك أن تتردى فى قاعه ، إلا أن يقيض الله — جلت قدرته — للجامعة من يستطيع أن يعصمها ويحيد بها عن ذلك المصير المزعج المشؤوم ! !

* * *

وبعد ، فما نريد أن ندع هذا الفصل قبل أن نبين للقارئ كيف كان أبو تمام — فى نظر الدكتور الفاضل — يخرج الأبيات عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها ، وهى الدعوى التى ادعاها حمزة بن الحسين فى القرن الرابع ، وأخذها عنه صاحبنا فى القرن الرابع عشر ، ثم أبى إلا أن يوجهها ويستشهد لها ، ليكون أحق بها وأجدر أن يتبناها ، أو ليهتف مع الشاعر :

كم ترك الأول للآخر ؟

وسنكتفى هنا بأن نورد شاهداً واحداً من الشـواهد التى ساقها تقريراً لتلك الدعوى ، لنتبين مبلغ ما أتيح له ووفق إليه فى سبيل تبنيها ، ونتعرف قيمة تصدى مثله فى العلماء ، لمثل أبى تمام فى الشعراء ، نقداً له ، وتسفيهاً لصنيعه . ولعلنا نستطيع أن نرى فى خلال ذلك مدى فهم الشعر فى صورته المجملة ، بعد أن رأينا ، فى ذلك الفصل ، مدى فهمه له فى صورته المفصلة :

عقد أبو تمام فى حماسته باباً سماه باب « الأضياف والمديح » ، وقد اعترض أستاذنا الفاضل على عقد هذا الباب بقوله : « أما باب الأضياف والمديح ، فهو لا يصلح أن يكون قسما من أقسام الشعر أصلا ، لأن تفريقه على الأقسام الأخرى ممكن ، فمعظمه يدخل فى الفخر فهو حماسة ... وبعض هـذا الباب يدخل فى الهجاء ... »

وهذا اعتراض — كما يرى القارئ — متهافت لا قيمة له ، إذ كان تصنيف الشعر أمراً اعتبارياً وليس من قبيل التقسيم العقلى . على أن هذا لا يعنينا الآن ، وإنما نحن بصدد استشهاده لدعوى الخلط فى أبواب الشعر ، وقد أورد فى عقب تلك العبارة التى اعترض بها طائفة من الأمثلة ، مما أخطأ — عنده — فيه أبو تمام — وأى خطأ ! — لجعلها من هذا الباب ، باب الأضياف والمديح ، وحقها عنده أن تكون فى باب الهجاء . فخطأ أبى تمام هنا إذن لا سبيـل إلى اغتفاره أو تمحل العلل له ، إذ هو خطأ — لو صح — غليظ كل الغلظ ، شنيع غاية الشناعة ، جدير أن يمحو اسمه من ديوان الأدباء والمتأدبين ، بل جدير أن ينأى به عن خواص العامة ، والمثقفين منهم أدنى ثقافة ، أو الذين يملكون منهم قدراً يسـيراً من الذوق والإدراك الأدبى ، ليلحقه بالعامة الحفاة الأقدام الذين لا يفرقون بين ما هو مدح وما هو هجاء !

فالاتهام — كما نرى — خطير غاية الخطورة ، وبقدر خطورته هذه يحتاج مع الجرأة — وهى موفورة جـداً عند صاحبنا فيما يبدو — إلى بذل غاية الجهد فى تأييده والتدليل عليه والاستشهاد له ، والتبسط فى ذلك ، وتحليل الشواهد تحليلا تسطع فيه الحجة ، وتختلج به الشبهة . ولكن الدكتور لم يلبث — بعد أن كان

(١) العدد ٨٣٤ (٢٧ يونية ١٩٤٩) .

يتشدق بالتهمة ويرفع بها عقيرته — أن انكمش وتضاءل في بسطها وبيانها وتأييدها وتوجيهها ، فاكتفى من ذلك كله بالإشارة العاجلة المسرفة في العجلة ، إلى بعض الشواهد التي اعتبرها حجة له ، بإيراد مطالعها وحسب ، ودون بيان لوضع الحجة فيها .

وها هو ذا أحد هذه الشواهد ، نورده كاملا عن ديوان الحماسة ، لنتبين فيه مبلغ المطابقة بين الدعوى والدليل ، وقد زعم الدكتور أنه مما يدخل في الهجاء ، وهو من شعر حطائط بن يعفر :

تقول ابنة العبّاب رُهْم : حربتنا ... حطائط ، لم تترك لنفسك مقعدا
إذا ما أفدنا صرمة بعد هجمة ... تكون عليها كابن عمك : أسودا
فقلت ، ولم أعي الجواب ، تبيني : ... أكان الهزال حتف زيد وأربدا
أريني جواداً مات هزلا لعلني ... أرى ما ترين أو بخيلا مخلّدا

وليت شعري أين رائحة الهجاء هنا ؟ ليتني أستطيع أن أدرك مهب هذه الرائحة التي زكمت أنف الأستاذ الفاضل ، فجعلته يراها هجاء صريحاً برغم أنف أبي تمام ، بل برغم أنف كل من يقرأ الشعر ويلم به أدنى إلمام .

ألا ليت من يدلني على لمحة خفيفة من الهجاء في هذه الأبيات ، أم لعلها كلمة « أسود » (ويعني الشاعر بها أسود بن يعفر النهشلي) هي التي غامت في عين الأستاذ واحلولكت ، فغمرت جو الأبيات بالسواد ، وإن يكن لون المديح أبيض فلون الهجاء لاشك أسود ، وكذلك أ.. لا أبو تمام — عفا الله عنه — فأقحم في المديح هذه الأبيات السوداء ، وقد غفل عن أن السواد لون الهجاء !

أستغفر الله وأتوب إليه !

هذا الشاهد وحده — وسائر الشواهد مثله في مبلغ المطابقة بينها وبين الدعوى — يبين لنا بياناً صريحاً قاطعاً مبلغ وفاء الأستاذ بما أخذه على عاتقه وأراد أن يبذ به الأوائل والأواخر من الاحتجاج لتلك الدعوى ، وتعزيز ذلك الاتهام الخطير ضد أبي تمام .

لقد كنا نرقب أن نرى وجهاً جديداً من وجوه المعركة القديمة بين العلماء والشعراء ، فإذا بنا أمام مهزلة تملأ النفس خجلا وتغمرنا معشر أهل العلم بمعاني الخزي والاستخذاء ! !

ومن حقنا وحق كل قارئ أن يتساءل : إذا كان هذا مبلغ فهم صاحب كتاب « الهجاء والهجاءون » لشعر الهجاء ، على النحو الذي رأيناه — فيما يزعم — لهذه القطعة من صفة هجائية ؛ فما عسى أن يكون الظن بكتاب يضمه في هذا الفن ، ويريد أن يؤرخ به له ، ولا بد أن يعتمد — أول ما يعتمد بطبيعة الحال — على ما أثر في الأدب العربي من شعر هجائي ليكون مادة بحثه ؟

وبعد ، فهل لنا أن نعتبر هذا مثلا من أمثلة الدرس الأدبي الجامعي في هذه السنوات الأخيرة ؟

وهل لمؤرخي الحياة الجامعية في مصر أن يروا في هذا الكتاب وثيقة تبين بعض مسالك هذه الحياة في هذه الأيام ؟

وددت والله ألا يكون الأمر كذلك ، وأن يكون مثل هذا الكتاب شذوذاً لا يؤخذ به ، وفلتة لا تدل على الحالة العامة ، فإنه ليحزنني أشد الحزن ويأخذ بأكظام قلبي أن تتكشف الحياة الجامعية أخيراً عن مثل هذا الاستخفاف ، وأن ينفرج الرداء الجامعي عن مثل هذا الخزي !

« أبو عبادة »

فلسفة المعتزلة

للدكتور ألبير نصري نادر

إن المعتزلة يمثلون سلسلة من المفكرين الذين تبدأ بواصل ابن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ أي ٧٤٨ م وتمتد إلى أبي هاشم بن الجبائي المتوفى سنة ٣٢١ هـ أي ٩٣٣ م وهو أستاذ أبي الحسن الأشعري رأس الأشاعرة .

بعد الأبحاث التي قام بها الغربيون والشرقيون ، وبعد ما كُتب عن المعتزلة بقي أن نبين طريقتهم الفلسفية وأن نستخرج الأصول التي بنيت عليها . هذا ما حاولنا أن نفعله في الرسالة الكبرى التي تقدمنا بها إلى حضرات أساتذة جامعة السربون بباريس وعنوانها فلسفة المعتزلة .

الأصل الأول والعام لهذه الفرقة التي توصلنا إليه بعد كل ما طالعناه من مراجع ، هو أن العقل البشري عند ما يكتمل نضوجه يمكنه أن يتوصل إلى معرفة الحقائق الكبرى الأولى وهي:

أولا : أن وجود العالم يدل حتما على وجود كائن أسمى متعال منح العالم هذا الوجود .

ثانياً : أن الإنسان يعمل حراً وهو مسئول عن أعماله محاسب عليها .

لذلك قسمنا الرسالة إلى قسمين كبيرين : أحدهما خاص بالتوحيد وما يتعلق به من مسألة الخلق ، والآخر خاص بالحرية عند الإنسان وما يتوقف عليها .

في القسم الأول بينا أن المعتزلة لا تقول بأي مشابهة أو تمثيل بين الله والعالم من جهة ، ومن جهة أخرى هم يقولون بالمذهب الوجودي ، فلا نعرف عن الله سوى حقيقة واحدة هو أنه موجود ، ولكن ماهيته لا يمكننا إدراكها لأنه غير متناهٍ ونحن متناهون . ثم إن ماهيته هي علمه وقدرته وإرادته . وإذا ما تكلمنا عن صفاته تعالى فهذه الصفات لا توجد حقيقة فيه بل هي اعتبارات ذهنية نلجأ إليها لضعف عقلنا . ونتيجة لمنع المشابهة بين الله والعالم المخلوق قالت المعتزلة إن الله لم يخلق ماهية العالم بل إنه وهب الوجود فقط للماهية كانت في حالة العدم . وحسب قولهم هذا يصبح المعدوم شيئاً وذاتاً وعيناً ينقصها الوجود فقط . وهذه نتيجة منطقية لقولهم بالمذهب الوجودي ومؤداه أن لكل فكرة مقابل في الحقيقة . ففكرة المعدوم يقابلها حقيقة .

ذهبت المعتزلة إلى هذه النتيجة لأنهم كانوا يريدون أن يصونوا فكرة التوحيد من كل شرك ومن كل مذهب حلولي ؛ وهم يفتخرون بأنهم أهل توحيد — وقولهم إن العالم لا يستمد ماهيته من الله بل يستمد منه وجوده فقط يدلنا على أنهم تأثروا بعض التأثر بالفلسفة الأرسطوطالية ولا سيما فيما يختص بفكرة الهيولى ، وهي عند أرسطو المادة الأولى التي لا صورة لها والتي يقول عنها إنها قديمة وأنها الماهية الأولى للعالم . وفي هذه المناسبة نقول إن القسط الأكبر من مؤلفات الفلاسفة والطبيعيين اليونانيين ترجمت إلى السريانية والعربية في عهد المعتزلة ؛ ويكفينا أن نذكر « دار الحكمة » في عهد الخليفة المأمون وعلى رأسه حنين بن إسحق .

إن المعتزلة متفقون على تفسير خلق العالم هذا التفسير وهو أصل أساسي في مذهبهم؛ ولكن هناك مسائل تعد ثانوية في نظرهم تختلف آراؤهم فيها . إذ بينا نرى مثلا أبا الهذيل العلاف يقول بالجوهر الفرد أي الذرة ، نجد النظام يقول إنه لا جزء وإن تقسيمه جائز ولو بالوهم . وبناء على هذا القول كان النظام أول من قال بالطفرة في الفلسفة الإسلامية ؛ ومعناها أن الجسم يمكنه أن يعبر من مكان أول إلى مكان ثالث أو رابع بينها أجزاء غير متناهية في القسمة وذلك بأن يطفر من الأول إلى الثالث أو الرابع .

الأصل الثاني في فلسفة المعتزلة هو الحرية عند الإنسان . فهم يقولون إن العقل عند ما يكتمل نضوجه يمكنه أن يصل إلى إدراك الحقائق الأولى التي يسترشد بها الإنسان في أعماله ، وذلك قبل أي تنزيل . ثم إن الإنسان حر أن يعمل بمقتضاها أو لا . فإذاً معرفة الخير والشر وما يترتب عن الأعمال من مسئولية وجزاء كلها مسائل يدركها العقل المكتمل . وإذا ما جاء تنزيل فلا يجوز أن يناقض ما يدركه العقل في هذا المضمار بل يجب أن يقويه ويتممه .

جزأنا هذا الأصل أيضاً جزءين : أحدهما خاص بعلم النفس — وكل هم المعتزلة في دراسة النفس هو البرهنة على حرية الإنسان

فى عمله ؛ وهم يردون بكل حماس على الجبرية ؛ فللعقل فى مذهبهم دور أخلاقى مهم يقوم به وهو التمييز بين ما هو خير وما هو شر بواسطة النظر . والجزء الثانى خصصناه المسألة الأخلاقية . إنهم يقولون إن الخير خير فى ذاته ، وأن الشر شر فى ذاته ، وليس بموجب إرادة خارجية حتى ولو كانت إرادة إلهية هذه النظرية سيكون لها أهميتها عند دانس سكوت والقديس توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر ، ورأى المعتزلة فيها هو رأى توماوى قبل القديس توما بحوالى ثلاثة قرون .

عندما يصل العقل إلى معرفة الشريعة يكون الإنسان حراً أن يفعل بمقتضاها أو لا يفعل . فحينئذ تظهر مسألة المعاصى والفسق؛ ولكن المعتزلة لا يبدون حكما على الظواهر (أى أعمال الإنسان الخارجية) لأنها لا تدل على ما تكنه القلوب ؛ لذلك يلزمون التحفظ فى الحكم على أعمال الغير .

ولما كان الإنسان يأتى المعصية حراً فيمكنه أيضاً أن يتوب منها . ولكن المعتزلة يضعون شروطاً للتوبة حتى تكون مقبولة . فيقولون إنها لا تجوز إلا إذا ندم الإنسان على فعله وعزم على أن لا يأتى بمثله . ولكن ألا يمكن أن يتدارك الله الفاسق بلطف ويساعده حتى يصبح مؤمناً ؟ إنها لمسألة دقيقة ولكن المعتزلة قالت : إذا وهب الله ذا الكبيرة أى الفاسق لطفاً من عنده ليؤمن جاز أن تقول أنه يهيء كفراً للمؤمن ليصبح كافراً . ويزيدون على ذلك قائلين إن من آمن حراً فضله أكبر من فضل الذى وُهب لطفاً ليؤمن . ومع ذلك لا ينكرون أن الله يهب أحياناً لطفه لبعض الناس ليؤمنوا ولكنها حالات شاذة .

بقى أخيراً مسألة الجزاء . فإن المعاصى تجلب حتما العقاب ؛ كما أن العمل الحسن يجلب حتما الثواب . والعقل يدل على ذلك ويطلبه . ولكن فى هذا العالم لا يوجد تكافؤ بين الأعمال وجزائها أو عقابها فيجب أن يصير هذا التكافؤ فى عالم آخر . وعليه فالجنة والنار لازمتان .

فها نحن أولاء بصدد فلسفة كاملة شاملة متماسكة الأجزاء :

النقطة الأولى : الله متميز تمام التميز من العالم — ليس بينه وبين العالم أى مشابهة أو تمثيل .

العالم كان فى حالة عدم — العالم لا يستمد من الله إلا الوجود

النقطة الثانية : المسألة الأخلاقية – فى عالم خاضع لقوانين ثابتة لا يمكنه رد نظرية الجبر وجعل الإنسان مسئولاً عن أعماله إلا إذا كان حائزاً على ملكة خاصة تمكنه من تمييز الخير من الشر كما يجب أن يكون حراً فى قصده وعمله .

لذلك سميت المعتزلة أهل توحيد وأهل عدل .

هذا المجهود الفكرى مدة قرنين متتاليين فتح الطريق للفكر الإسلامى . وأثر المعتزلة سيكون بيناً واضحاً عند الفلاسفة المسلمين المعاصرين أو اللاحقين لهم مثل الكندى والأشعرى .

لذلك سميناهم فلاسفة الإسلام الأسبقين .

البير نصري نادر
دكتور فى الآداب والفلسفة

حول بيتين للخطيل بن أوس

للأستاذ الســـيد مصطفى غازى

عرض الأستاذ (أبو حيان) فى العدد ٨٣٤ من مجلة الرسالة الغراء مثلا من فهم الشعر القديم فى كتاب «الهجاء والهجاءون» للدكتور (م . محمد . حسين) . وكان مدار الحديث حول بيتين للخطيل بن أوس هما :

فدى لبنى ذُبيان رَحلى وناقتى عشية يحدى بالرماح أبو بكر

ولكن يدهدى بالرجال فهبنه إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى

قالها الخطيل فى حركة الردة ، وأوردهما الدكتور فى مستهل حديثه عن نشأة الأحزاب السياسية فى المجلد الثانى من كتابه .

وقد أحس الأستاذ أبو حيان (بالحسرة تلذع قلبه) وهو يقرأ هذين البيتين مضبوطين بهذا الضبط، مرويين على هذا النحو، رهاله أن يتجاوز الدكتور البيت الأول فلا يعلق عليه بشرح أو تفسير أو تحرير . وإلا فكيف مر بكلمة «يحدى» دون أن يحس فى البيت إشكالا ؟ كيف يحدى أبو بكر بالرماح والحادى من يحدو الإبل بغنائه فتنساق خلفه وتطرد وراء حدائه ؟ كيف يمكن أن تكون الصورة حين تأتى الرماح فى موضع الحداء ؟ ... إن الأمر — فى رأى الأستاذ أبى حيان — أيسر من هذا العناء . فالدال فى «يحدى» إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . والعبارة فى البيت الأول إنما هى «عشية يحذى بالرماح أبو بكر» بمعنى يطعن ويمزق جسده ، كما هو الأصل فى معنى هــذا وأخواتها ، كحذ وحذق وحذف وحزم .

ثم انتقل الأستاذ أبو حيان إلى البيت الثانى (فأفزعه أشد الفزع) أن يعلق المؤلف عليه ، شارحاً له ، بقوله : «دهديت الحجر فتدهدى دحرجت . هبنه كذلك هى بالنص . لعلها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها قائلا: هاب ، هاب فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم» وهاله أن يروى الدكتور «يدهدى» بصيغة المبنى للمفعول ، وأن يجمد عند «فهبنه» فيتعسف فى تأويلها هــذا التعسف . وإلا فكيف يمكن أن تكون «هبنه» معدولة عما ينبغى أن تكون عليه باعتبارها من «أهاب» ؟ ومن هم هؤلاء الرجال الذين يزجرون أبا بكر وجيوشه ؟ أهم رجال أبى بكر يريدهم أن يزجروا أنفسهم ؟ أم هم بنو ذبيان يجعلهم يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة ؟ ... إن الأمر فى هذا البيت شبيه — فى رأى الأستاذ أبى حيان — بالأمر فى البيت الأول ؛ تصحيف يسير قريب ولكنه أدى إلى ذلك الخلط العجيب . فليست كلمة «فهبنه» المؤلفة من فاء عطف لا يدرى ماذا تعطفه وماذا تعطف عليه ، وفعل لا يعرف من أى أصل هو ، ونون نسوة لا موضع لها ، وضمير غيبة لا مرجع له — ليست هــذه الكلمة أو الجملة إلا تصحيفاً قريباً لكلمة واحدة ، هى كلمة «مهينة» من الهوان وبذلك يكون البيت .

ولكن يدهدى بالرجال مهينة إلى قدر ما إن تقيم ولا تسرى

ويدهدى بصيغة المبنى للفاعل لا المبنى للمفعول ، والفاعل هو أبو بكر ، وبذلك يستقيم البيت ويطرد المعنى ، دون تحد للنحو أو معاندة للصرف أو معارضة المنطق .

ويبدو لنا أن الأستاذ أبا حيان قد أعجلته الرغبة فى النقد ، وشغله الاهتمام بالتجريح واللمز ، عن أن يرجع إلى المصدر الذى نقل عنه المؤلف بيتى الخطيل . ولو أنه رجع إلى الطبرى فى تاريخه واصطنع التحقيق والتدقيق فى بحثه ، لأفاد من فهم الظروف التى لابست هذين البيتين ، ولاطمأن إلى «يحدى» فى البيت الأول كما اطمأن المؤلف ، ولم يجزم هذا الجزم العجيب بأن الدال إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . فقد روى الطبرى فى تاريخه أن بعض المرتدة ، وفيهم نفر من ذبيان أعدوا العدة للإغارة على المدينة ليلا بعد أن خلفوا بعض رجالهم فى ذى حسى ليكونوا لهم ردءاً . فأسرع أبو بكر للقائهم «وخرج فى أهل المسجد على النواضح إليهم ، فأنفسن العدو ، فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسى ، فخرج عليهم الردء بأنحاء(١) قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم دهدهوها بأرجلهم فى وجوه الإبل ، فتدهده كل نحى فى طوله(٢) ، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها — ولا تنفر من شىء نفارها من الأنحاء — فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، فلم يصرع مسلم ولم يرهب . فقال فى ذلك

(١) جمع نحى وهو الزق أو ما كان للسمن خاصة .

(٢) الطول — كالطيل — حبل يشد به قائمة الدابة

الحطيل بن أوس أخو الحطيئة بن أوس ... الأبيات [1] » اهـ . فأبو بكر ورجاله قد عادوا إلى المدينة إذن دون أن يصيب أحدهم مكروه (فلم يصرع مسلم ولم يصب) ، ولم يطعن أبو بكر أو يمزق جسده كما أراد الأستاذ أبو حيان أن يفرض ذلك علينا فرضاً . وعلى ذلك فلا محل للجزم بأن الدال فى « يحدى » إنما هى ذال معجمة ذهب إعجامها . ولا غرابة بعد ذلك فى أن « يحدى » أبو بكر بالرماح ، وأن يساق بها سوقاً كما تساق الإبل بالحداء . فالاستعارة فى ذلك مألوفة مأنوسة ، واستعمال الحداء هنا على سبيل التهكم كاستعمال القرى فى معرض التنديد بالقتل ، وكاستعمال البشرى فى معرض التهديد بالعذاب .

ولو أن الأستاذ أبا حيان رجع إلى نص الطبرى ، ولم تعجله الرغبة فى النقد والتجريح ، لعدل عما انزلق إليه فى البيت الثانى من تأويل . فالطبرى يحدثنا بأن المرتدة هم الذين دهدهوا الأنحاء فى وجه أبى بكر ، وأن أبا بكر هو الذى دهده بهذه الأنحاء ، دهدهه بها الرجال ، رجال بنى ذبيان فيمن معهم من المرتدين . وعلى ذلك فالقصة كما رواها الطبرى تقتضى أن يكون « يدهدى » بصيغة المبنى للمفعول لا المبنى للفاعل . وإذاً فلا محل للجزم بأن الفعل مبنى للفاعل ، وأن الفاعل أبو بكر ، وأن المقصود بالرجال هنا المرتدة من بنى ذبيان . وليس ببعيد أن تكون « فهبنه » التى تشكك المؤلف فى أمرها قائلا : (كذلك هى بالنص) والتى حاول تأويلها قائلا : (لعلها من أهاب الإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب) — ليس ببعيد أن تكون هذه الكلمة من « الهاب » وهو زجر الإبل عند سوقها فقد جاء فى لسان العرب فى مادة (هـ ى ب) : « والهاب : زجر الإبل ، عند السوق ... وأما الإهابة : فالصوت بالإبل ودعاؤها » . فالهاب إذن زجر الإبل وتنفيرها ، والإهابة دعاؤها وجمعها . والهاب — كما لا يخفى على الأستاذ أبى حيان — مصدر من الفعل الثلاثى . فأى غرابة فى أن يكون الثلاثى من هذه المادة مستعملا ؟ وكيف تكون (هاب) بعد ذلك مجهولة الأصل والمصدر منها موجود فى معاجم اللغة ؟ أما عن ضمير الغيبة فى (فهبنه) فرجعه أبو بكر فى البيت الأول . والفاء تعطف « هاب » على « يدهدى » . ويدهدى فعل مضارع ، ولكنه يدل على المضى هنا ، وإنما عدل به عن المضارع لاستحضار صورة الحادث فكأنه يقع الآن أمام أعيننا . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما ورد فى السيرة : « فيأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ » [1] . وإذا كان استعمال نون النسوة هنا غريباً ، فليس هناك ما يقطع بأن الشاعر القديم لم يقصد إلى استعمالها قصداً . وما أكثر ما كان الشاعر القديم يخرج على قوانين النحو والصرف ليقيم شعره ! وما أكثر ما كان يخرج على هذه القوانين نتيجة السهو والخطأ . فإذا أخذنا بعد ذلك رواية الشطر الثانى من البيت (إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى) — وهى رواية أوردها ناشر تاريخ الطبرى فى حاشية الكتاب [2] إذا أخذنا بهذه الرواية ، فقد استقام البيت واطرد المعنى ، إذ أن عبارة (ما إن يقيم ولا يسرى) تعود بذلك إلى أبى بكر مصورة حاله حين عاد إلى المدينة مضطربا مفزعا قد أخذت منه الحيرة والمفاجأة كل مأخذ . وعلى ذلك تكون قراءة البيت :

ولكن يدهدى بالرجال فهبنه … إلى قدر ، ما إن يقيم ولا يسرى

أى أن رجال بنى ذبيان يدهدهون أبا بكر بالزقاق ، فيزجرونه إلى قدره وقضائه ، وقد سدت فى وجهه المسالك ، وأعيته الحيلة وأخذت منه الحيرة ، ونالت منه المفاجأة ، فهو لا يقيم ولا يسرى

ذلك — فيما نرى — أدنى إلى سياق القصة ، وأقرب إلى روح العلم ، وما ينبغى لطالب من الأمانة فى التدقيق ، ومن البعد عن البت والجزم حين تحتمل المسائل أكثر من وجه . ولعل الأستاذ أبا حيان واجد فى كلمتنا هذه ما يشيع الرضا فى قلبه فلا يحس (بالحسرة تلدعه) ، وما يعيد الطمأنينة إلى نفسه فلا يعود (يشكو إلى الله) أن يتهجم الجامعيون على الشعر القديم فيما يعرضون له من بحوث .

السيد مصطفى غازى
ليسانس فى الآداب من جامعة فاروق الأول

(1) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ط لندن جـ 4 ص 1874 ، 1875

(1) السيرة النبوية لابن هشام ط الحلبى جـ 2 ص 69

(2) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ط ليدن جـ 4 ص 1875

من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامــــة !...

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٢ —

وحين ندرس نفسية هذا الظريف من خلال قصصه ونوادره — وهي غاية ما وصل إلى أيدينا من حياته — سنضطر إلى ذكر بعض مداعباته لنستدل بها على شيء مما نراه . ومن تلك الداعبات التي نشير بها إلى ما كان من انسجام بين أبي دلامة وزوجته اشتراكهما في خداع المهدي وزوجته الخيزران : فقد دخل أبو دلامة يوماً على المهدي وهو يبكي . فقال له مالك ؟ قال : ماتت أم دلامة ، وأنشده فيها :

وكنا كزوج من قطا في مفازة — لدى خفض عيش ناعم مؤنق رغد

فأفردني ريب الزمان بصرفه — ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد !

فأمر له بثياب وطيب ودنانير ، وخرج . فدخلت أم دلامة على الخيزران فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات فأعطتها مثل ذلك ، فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجبان منه[1] .

ومثل هذا الاشتراك في الخداع الذي كان يمضي طليقاً حتى يصل إلى الخليفة وزوجته — يدل على تفاهم عميق بين الزوجين ، وعلى وحدة في نظرتهما إلى الحياة ، فكأنهما يشرفان على العالم من منظار واحد فيه مرح النكتة ، ولطف الدعابة .

وهنا نرغب في معرفة اسم هـذه المرأة الخبيثة — زوجة شاعرنا الظريف — فتضن به علينا المصادر كأنها لا ترى في ذكره فائدة .

ونعلل هـذا — كما يبدو لنا — بأن أمثال هذا الظريف تروى في كتب الأدب حياتهم للاشارة إلى جانب يستحق الدراسة فيهم وهو ظرفهم ومرحهم وسلاطة ألسنتهم ، وما بعد هذا الجانب فأمور تتعلق بأحدهم من قريب أو بعيد كما تتعلق بآحاد الناس فلا تستأهل الدراسة ، ولا تستحق التسجيل .

لذلك سنمر — في أثناء عرضنا لحياة أبي دلامة — مروراً رفيقاً بما يتصل بأسرته ، فنعلم أنه كان له أولاد غير دلامة وأن فيهم بنتاً قبيحة ولكنا لا نعرف أسماءهم ، ولا نحاول أن نعرف ما إذا كان له أخوة ، فقد سكتت عن هذا كله النصوص التي بين أيدينا . ولكن الذي يجدر بنا أن نعرفه منزلة هذا الظريف لدى أبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور والمهدي أيام انقطع إلى مجالستهم ومنادمتهم .

ويبدو أنه كان رفيع المكانة لدى السفاح ، وأنه — للطف محله منه — كان ينال ما يشاء من المطالب ولا سيما إذا أحسن في أسلوب الطلب : من ذلك أنه وقف يوماً بين يدي السفاح — فقال له : سلني حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أتصيد به . قال: أعطوه إياه. قال: ودابة أتصيد عليها. قال : أعطوه دابة. قال : وغلام يصيد بالكلب ويقوده . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتك مائة جريب[1] عامرة ومائة جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نبات فيه؟فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال : فائذن لي أن أقبل يدك . قال : أما هـذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها[2] .

فانظر — في هذه القصة — إلى مكانة أبي دلامة لدى السفاح ، تلك المكانة التي تهيء له أن يجاب له كل طلب بعد أن يصير عليه الخليفة فلا يسكته ، بل يتقبل جرأته ويثيبه عليها فيجزل ثوابه ؛ ثم انظر — كما قال الجاحظ — « إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها : ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٥ .

(١) الجريب من الأرض : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع وقيل عشرة آلاف ذراع .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٦

وفكاهة ، حتى نال مالو سأله بديهة لما وصل إليه ! »

وكما أحسن السفاح إلى أبى دلامة ظل الظريف مقيما على الوفاء له يمدحه فى كل مناسبة ويذكره بكل خير ، بل لقد أقام يذكر جميله حتى بعد موته ، فرثاه بأبيات كثيرة . ومما قاله فى قصيدته الهمزية :

وكنا بالخليفة قد عقدنا   لواء الأمر فانتقض اللواء
فنحن رعية هلكت ضياعاً   تسوق بنا إلى الفتن الرعاء

ولم يكتف بهذا ، بل إنه دخل على المنصور والناس عنده يعزونه فى السفاح فأنشأ يقول :

أمسيت بالأنبار يا ابن محمد   لم تستطع عن عقرها تحويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلهم   ويلا وعولا فى الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة   وليبكين لك الرجال عويلا
مات الندى[1] إذ مت يا ابن محمد   فجعلته لك فى التراء[2] عديلا
إنى سألت النـــاس بعدك كلهم   فوجدت أسمح من سألت بخيلا[3]
ألشقوتى أخرت بعدك للتى   تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة   بالله ما أعطيت بعدك سولا[4]

فلما سمع الناس هذه الأبيات بكوا . فغضب المنصور غضباً شديداً وقال : لئن سمعتك تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك . فقال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مكرماً وهو الذى جاء بى من البدو كما جاء الله بأخوة يوسف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) فسرى عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان بن مجالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبى أيوب

(١) وفى رواية : هلك الندى إذ نبت .

(٢) التراء : لغة فى الثرى   (٣) وروى هذا البيت برواية أخرى:
ولقد سألت الناس بعدك كلهم   فوجدت أكرم من سألت بخيلا

(٤) السول (بهمزة وبغيرها) ما سألته . ويروى أول البيت أيضاً : ولقد حلفت ...

الخازن وهو مغيظ : يا سليمان ادفعها إليه[1] .

ولو لم يكن السفاح يكثر العطاء والصلة لأبى دلامة مقرباً إياه على سواه لما مدحه الشاعر هذا المدح العظيم ، ولما رثاه أمام المنصور ذاك الرثاء البليغ ، ولما بقى مقيما على الوفاء له . ويظهر أن لحذق أبي دلامة فى المسألة ومهارته فى إظهار حاجته ولباقته فى طلب ما يريد — أكبر الأثر فى رغبة الخلفاء العباسيين بوصله ولا سيما المنصور الذى اشتهر ببخله ، ومع ذلك «لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبى دلامة منه خاصة » كما قال صاحب الأغانى[2] .

وحسبك أن تعلم أن أبا دلامة دخل على المنصور يوماً فأنشده :

أما ورب العاديات ضبحا[3]   حقاً ورب الوريات قدحا
إن المغيرات على صبحا   والناكثات[4] من فؤادى قرحا
عشر ليال بينهن ضبحا[5]   يجعلن مالى كل عام صبحا ...

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاة . ففرض له على كل هاشمى أربعة وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم ، فأتى العباس بن محمد[6] فى عشر الأضحى يتنجزها . فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات أبوك ؟ قال بلى . قال : انقصوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير لا تفعل ، فإنه ترك على ولدين . فأبى إلا ينقصه . فخرج وهو يقول :

أخطاك ما كنت ترجوه وتأمله   فاغسل يديك من العباس باليأس
واغسل يديك بأشنان[7] فأنقهما   ممـــا تؤمل من معروف عباس
جزاك ربك يا عباس عن فرج   جنات عدن وعنى جرزتى[8] آس

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، واغتاظ على العباس ، وأمره

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٤٠

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢٣٥

(٣) الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت ليس بصهيل ولا حمحمة

(٤) نكأ القرح : قشره قبل أن يبرأ فيندى

(٥) هكذا وجدنا فى الرواية ، وفى أخرى (صبحا) والمعنى غير واضح فيهما   (٦) كان هذا الرجل مشهوراً بالبخل

(٧) الأشنان (بالضم) حمض تغسل به الأيدى

(٨) الجرز : الحزمة

بأن يبعث إليه بأربعة وعشرين ديناراً أخرى[1].

فرجل يفرض له المنصور عطاء على كل هاشمى لا بد أن يكون محبوباً لديه، مقرباً عنده. ولم لا يقرب المنصور أبا دلامة وهو لا يستريح إلى منادمة أحد سواه، بل يضحك لدعابته فى أدق الظروف؟

توفيت حمادة بنت عيسى وحضر المنصور جنازتها. فلما وقف على حفرتها قال لأبى دلامة: ما أعددت لهذه الحفرة؟ قال: بنت عمك يا أمير المؤمنين حمادة بنت عيسى يجاء بها الساعة فتدفن فيها! فضحك المنصور حتى غُلب فستر وجهه[2].

وما أظنك إلا ضاحكا مع المنصور لو سمعت من أبى دلامة مثل هذا الجواب الذى يدل على بديهة حاضرة، ونكته سريعة، لا يستطيع صاحبنا أن يقلها حتى فى أحرج المواقف.

ويمثل هذه الطلاقة فى الرد والسهولة فى الجواب تستطيع أن تفرق بين نكتتين إحداها متكلفة مصطنعة، والأخرى صادرة عن طبع وملكة. وأنت نفسك إذا سمعت النكتة الباردة — أو التى يسمونها « بايخة » — رفضتها وضجرت من سماعها ونبا عنها ذوقك، وإن أنت سمعت النكتة الموفقة المحكمة أدركت حلاوتها فضحكت لها من صميم قلبك، لأنك تحس فيها روح الدعابة كما تحس فى الشعر الرفيع عبقرية الإلهام، فتنتقل من عالمك الصغير المحدود، إلى عالم الجمال والخلود!

(يتبع) صبحى إبراهيم الصالح

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٢٥٦ وقيل إن هذه القصة كانت مع على ابن صالح بن على

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ٢٦٢

وداع مصر ...

للشاعر الكبير الأستاذ محمد على الحومانى

جددى يا مصر ... فينا الخيلاء — يُخيف الأرض وتختال السماء
« المعز » اختال فى كل حشا — من بنيك الشوس، عزا وإباء
منذ كان « النيل » كانت « مصره » — جنة تطفح بشراً ورواء
وعلى شطيه من كل فم ... — درة تضفى على الفجر الضياء

يا لمـــاء النيل ما أسمره! — فى شرايينك ناراً لا دماء
تنشدين المجد من عبقره — زاحفاً جيشاً، وخفاقاً لواء
كل قرم قذفت « مصر » به — لم يخر عزما ولم ينكل مضاء
سل فلسطين به إذ رخصت — عندها الأنفس بيعاً وشراء
فى ســـبيل الحق من أمته — نبذ الفردوس واختار العراء

يا لمرأى النيـــل، ما أروعه — تحت أفيائك صبحاً ومساء
يا لأفق النيـــل ما أحفله — بالمنى منك خلوصاً وصفاء
بالوشى النيـــل ما أبهجه — فوق إعطائك ظلا لا رداء
يا لصوت الفن ما أعذبه — فى فم النيـل خريراً لا غناء
كلمـــا أمعنت فى تحليله — هزنى المُعجب وعفت الكيمياء
ذهب سال فأجنى ثمـــراً — لفظ الشمس، ومج الكهرباء

يا لمـــاء النيل. ما أنضره — فى وجوه الغيد، لوناً لا طلاء
شفق ذاب على كل فم ... — جلا الكأس وحيا الندماء
وبدا خلف المـــآقى حوراً — يرصد النجم ويصطاد الظباء
وعلى المعصم من كل يد — أفعوانا يتحدى السفهاء

هذه « مصر » وهـذا نيلها — خصنا الله بمـا شاءت وشاء
شرف من عهد « خوفو » لم يزل — يخلع الدهر عليه الكبرياء
تقف الدنيا على أمجـــاده — فتغض الطرف أو تغضى حياء
وجمال يحـــلم « السين » به — فيرى « باريس » أن لا تتراءى
فاتها من « مصر » أفق لم تفت — أوجه الأقمار صيفاً وشتاء
وعلى ضاحية النيـــل رؤى — تذهل الرائى أماماً ووراء

يرد النزهة والماء معاً   كتل الخلق رجالا ونساء
فقبيل حال منهم بشراً   وقبيل لم يزل طيناً وماء
فبنات القصر يكرعن الطلا   وبنات الكوخ يشددن الوكاء
مشهد إن شئت أغواك وإن   شئت أشجاك بما سر وساء

يا لماء النيل ، ما أعرقه !!   في الدم المصري ، حذقاً ودهاء
عالجوا الحكم فسادوا ساسة   ورعوا الفن فسادوا أدباء
وبنو الأزهر إذ قاموا بنا   للهدى ، بروا فكانوا حنفاء
لغة القرآن عزت بهمو   فشوا فيها إلى الله ظماء
ينشدون الحق فيما كتبوا   أبعد الناس ، خداعاً ورياء
عهد الفن إلى أقلامهم   بأمانيه فكانوا أمناء
لا يريم الخلد عن ساحتهم ،   وعلى الأهرام ، باتوا خفراء

يا لماء النيل ، ما أحفله !!   بالدم الفائر خوفاً ورجاء
يتقى الزائف فيما يتقى   ويرجى من بنيه الخلصاء
حكمة أفضت به عن كثب.   أن يرى الداء ويختار الدواء
لم أجد في بلد أنظمة   قام أهلوه عليها حكماء
ورأيت النيل يحمي بلداً   سادت الحكمة فيه الرؤساء
رب شخص أو شخوص منيت   بهمُ مصر ، فكانوا دخلاء
بيد أن النيل لم ينبت على   ضفتيه شجرٌ يثمر داء

يا لماء النيل ، ما أطهره   في الدم المصري عطفاً وإخاء
كن كما شئت ، ولكن مسلماً   عربياً ، تنل « النيل » جزاء
يحسب النازل فيهم أنه   وطني ويراهم غرباء
هكذا أعرق فيهم خلق   حال في الأعراق نبلا ووفاء
لم أقف منهم على غير يد   تمطر الدنيا عفافاً وسخاء
اطفأت في يد من لا طفها   وجفت في يد من أولى الجفاء

إيه : يا مصر ، على أي يد   لك عندي ، أبعث الشعر ثناء ؟؟
كم جديد حفل الغرب به   طبق الداعي له الأرض نداء
لم يرقني منه إلا أسف   كلما خامرني زدت استياء
كل زهر نعمت عيني به   لم يهب روحي من العطر غذاء
وجمال صبت النفس له   لم أجد فيه من الروح شفاء
وغناء وعت الأذن به   لم يجد عنك به السمع غناء

ولدي أن همت روح الصبي   بين جنبيّ تنسمت الهواء
وعرفت السر في الزهر الذي   وهب الصب له القلب وعاء
هو من روضك في «أندلس»[1]   يحسد النجم عليه الظرفاء
هو في «الندى» حيث اتقدت   شهب الندوة من «عين ذكاء»[2]
هو في «الجيزة» روض وشمت   حبب الكأس لياليه الوضاء
سر هذا الزهر عطر انبست   ضفة النيل به هذا الكساء
وجمال هو في كل دم :   حركات تستخف الشعراء

هذه مصر وهذا نيلها   تنعم الدنيا بها مما أفاء
هذه « نويرك » لم تبطر ولم   يغبط العقل عليها الرقباء
ناطحات السحب فيها همم   شمخت عزاً ولم تشمخ بناء
إنها « نويرك » لم تعمل بها   يد إسرائيل كيداً وبناء

هذه « لندن » لم تطغ ولم   يعلك البغي عليها النبلاء
كانت الدنيا . فلما عبثت   يد «صهيون» بها عادت هباء
وستُلقى ضعف ما ألقت على   جيرة « الأردن » ذلا وشقاء

هذه « باريس » لم تخسف ولم   تبذل العرض من الخسف وقاء
تنشد القوة لم يعصف بها   نزوان يسترق الضعفاء
هذه الدنيا يرى السعد بها   محسن الناس ويشقى من أساء

أي مستقبل عز ظافر   لك يا مصر . يناديك النجاء !
عرب الدنيا تفدّيك بما   لم تجد إلا لك الدنيا فداء
نحن يا مصر ، بنو الصِّيد الأولى   فتحوا عُلباً وسادوا رُحماء
لا ترى في قول من ينعتنا   أننا عُرج الوفا ، إلا افتراء
لم تَرِم « دجلة » عن نصرتكم   في «فلسطين» ولم تحجم عداء
البلاء المر في « أهرامنا »   لم يزل في «بابل» ذاك البلاء[3]
لا يرد الغرب عن إجرامه   أن يرى منا خصوماً شرفاء
غمة لا تنجلي مالم نعد   مرة أخرى غزاة رُعناء

(صيف مصر ١٩٤٩)

محمد علي الحوماني

---

(١) هي حديقة الأندلس في الجيزة .
(٢) عين ذكاء هي عين شمس أي مصر الجديدة حيث تلتئم الندوة الأدبية التي انتخبت الناظم عضواً فيها .
(٣) كنى الشاعر بالأهرام عن مصر وببابل عن العراق .

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

كبار الأدباء وعضوية البرلمان :

حديث الانتخابات المقبلة أهم مايشغل الصحف فى هذه الأيام وقد أمسكت بإحداها وغرقت ساعة فى أنهارها وجداولها المملوءة بأحاديث الوزراء ورجال السياسة وتعليقات المحرر ، عن تعديل الدوائر وفتحها وإغلاقها وما إلى ذلك . ثم ألقيت الصحيفة جانباً ورحت أفكر فى الموضوع على نحو آخر ، قلت فى نفسى : لا شك أن تمثيل الأمة فى البرلمان يتطور من حيث المستوى الفكرى لنوابها وشيوخها ، تبعاً لتطور الأمة نفسها لانتشار التعليم وازدياد المتعلمين ، أى أن عهد (النمر) الذى بدأت به الحياة النيابية فى مصر آخذ فى الانقراض شيئاً فشيئاً ، و « الموافقون » على ما لا يعرفون ما يوافقون عليه يوشكون أن يتركوا أماكنهم للعناصر الجديدة . ثم قفز إلى ذهنى خاطر آخر ، فقلت فى نفسى أيضاً : هل اقترب التطور من الحال التى يمكن فيها أن يشتمل البرلمان على الصفوة من رجال الأدب والفكر فى مصر ؟ ولكن كيف السبيل ؟ هل يخوضون معامع الانتخابات ؟ . وهنا جعلت أتصور بعض هؤلاء الأعلام وقد رشحوا أنفسهم للانتخاب ...

الدكتور طه حسين خطيب يسحر الجماهير ولكنها ليست جماهير الانتخابات ، وهو لا يستطيع أن يجلس إلى أهل الدائرة إذا ارتفع الضحى وإذا أقبل المساء ، يسمع منهم ويسمعون منه ، فيضيق بهم وقد يضيقون به ، حتى إذا بلغ الأمر ما اعتاد أن يبلغ كل عام فى أوائل الصيف ، ولم يعد فى وسعه احتمال الحر والشر والنكر ، فر إلى باريس ...

والأستاذ توفيق الحكيم لا يستطيع مخالفة حماره الذى هو مصر على مقاطعة الانتخابات ومجانبة « التمرغ » فى أوحالها ، وقد خبرها أيام كان صاحبه نائباً فى الأرياف ، فأصبح فيها من الزاهدين .

والأستاذ المازنى إذا طاف بالدائرة فسيرغب عن سماع القصائد التى ينظمها أنصاره والداعون له ، فقد أنكر شعره فهل يسمع شعر هؤلاء ؟ وقد لا يجد له جلداً على قصيدة من الشعر الوسط فلا يصبر عليها ولو أدى ذلك إلى ضياع « تأمين » الانتخابات ... وسيشعر بضيق وقته عن هذا العناء والعبث فيهرب إلى حيث يكتب المقالات المطلوبة منه للصحف والمجلات .

والدكتور أحمد أمين بك رجل فكر ومنطق لا يعجبان الناخبين ، وعند ما يشاهدون ما يبدو عليه من الجد الوئس ، وما يصطنعه أحياناً من التفاؤل ، ينصرفون عنه إلى منافسه ويتركونه قانعاً يتعزى بـ « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » وقد يدرك بعض الخبثاء أنه سيكون عضواً فى كل لجنة من لجان المجلس الذى انتخب له ، وقد يكون رئيساً لبعضها ، فيعملون على محاربته ليظل قانعاً بلجان وزارة المعارف ولجان المجمع اللغوى واللجنة الثقافية بالجامعة العربية ولجنة التأليف والترجمة والنشر .

أما الأستاذ الزيات فتقف « الرسالة » فى طريقه عقبة أى عقبة ... إذ لا بد أن ينجم له فى الدائرة « شعراء وكتاب » يريدون أن ينشروا فى الرسالة ماتجود به قرائحهم من النظم والنثر؛ وقد يطلبون تغيير عنوان هذا الباب بحيث يكون « الأدب والفن فى الدائرة » وعميد الرسالة لن ينشر لأحد من هؤلاء شيئاً ، والأدب والفن لن يخضعا للدائرة . وهكذا تتعقد المسألة وتستعصى على الحل ، فيقتنع الأستاذ بظل « الكافورة » فى المنصورة صيفاً وننظفر نحن بمجلسه فى ندوة الرسالة إذا جاء الشتاء .

وأما الأستاذ العقاد فهو عضو بمجلس الشيوخ عن طريق التعيين ، ولو أنه دخل الانتخابات لاصطدم بطلاب الوظائف ومطالب الموظفين من أهل الدائرة ، فالكاتب الجبار لن يرجو مخلوقاً لمخلوق ، فإذا وصل الأمر إلى أن يطلب موظف نقله من أسوان فإن الأستاذ الكبير يعتبر ذلك إساءة بالغة إلى مسقط رأسه ، فينسحب من الدائرة فى الحال ، ويكتب مقالا بجريدة الأساس منذراً بسوء المآل .

إذن ما هو الطريق المفضى بأولئك الأعلام إلى البرلمان ؟ عضوية الأستاذ العقاد بمجلس الشيوخ تبعث إلينا بصيصاً من الضوء ، حقاً إنه ينتمى إلى حزب سياسى ، والسياسة الحزبية

تمين على تقديم الحزبيين ، ولكن ألست ترى أننا الآن قد أخذنا فى عهد قومى جديد وجه إليه جلالة الفاروق ، إذ أمر بتأليف الوزارة من جميع الأحزاب على أن يخلع الجميع رداء الحزبية فى خدمة البلاد .

وقد أوشكت الدورة البرلمانية الحاضرة أن تنتهى ، وسيجرى الانتخاب لمجلس النواب ولثلثى مجلس الشيوخ ، ولندع ذلك لنقصر النظر فى الثلث الباقى من مجلس الشيوخ وهو الذى يختار أعضاؤه من ذوى الكفايات فى الميادين المختلفة ، فإذا كان يختار الأعضاء من رجال السياسة ومن رجال الاقتصاد وغيرهم ، أفلا ينبغى أن يتجه النظر إلى رجال الأدب والفكر فنختار خلاصة منهم أعضاء فى مجلس الشيوخ ؟ فذلك هو المنفذ الوحيد الذى يصل منه أولئك الرجال إلى مقاعد النيابة عن الأمة . كما أن ذلك يعتبر من دلائل القومية التى تهدف إلى صالح البلاد .

فاطمة وماريكا وراشيل :

هذا هو اسم الفلم الجديد الذى عرض فى هذا الأسبوع بسينما رادو ، أخرجه حلمى رفلة ووضع قصته وحواره أبو السعود الأبيارى ، وأدى بطولته محمد فوزى واسماعيل يس ومديحة يسرى ولولا صدقى ونيللى مظلوم .

يوسف جلال (محمد فوزى) شاب لا هم له إلا خداع البنات باسم الحب والتأميل فى الزواج وقد أعد له أحد الصاغة تسعة وعشرين خاتماً ، على عدد حروف الهجاء ، نقش على كل خاتم حرف منها ، فإذا اتصل ببنت قدم لها الخاتم الذى يوافق أول حروف اسمها . ويقيم معه حمص افندى (اسماعيل يس) وهو صديقه وسكرتيره عند اللزوم .

يتصل يوسف بفتاة يهودية هى راشيل (نيللى مظلوم) فى حفلة زفاف ، إذ كانت ترقص فى الحفلة وكان هو يغنى فيها ، فينازلها وتبدى له الحب فقد عرفت أنه غنى ويتفقان على الزواج بعد أن يقول لها إن اسمه يوسف كوهين وتذهب به إلى محل تجارى لتشترى ثوباً ، فتستقبلهما ماريكا (لولا صدقى) مديرة المحل ، وفى غفلة من راشيل ينازل يوسف الفتاة الرومية ماريكا ويتسمى لها باسم جوزيف ترياكو ، ويتفقان على الزواج . ثم ينتهى أمره مع كل منهما عند ما تفاجئه راشيل فى حفلة خطوبته لماريكا فيطفئ حمص افندى الأنوار ويقفز هو وصاحبه من إحدى

كشكول الأسبوع

◘ قدمت الجامعة العربية إلى هيئة اليونسكو ألف جنيه مصرى على سبيل الإعانة لهذه الهيئة فيما تقوم به من جهود لتعليم أبناء اللاجئين العرب . وهذه المساهمة من الجامعة ، على أى حال ، خير من أن لا تعمل شيئاً فى هذا السبيل .

◘ أحجمت وزارة المعارف بعدولها عن شراء أوراق البردى التاريخية التى طلبت سيدة أجنبية تملكها ٦٥٠٠٠ جنيه ثمناً لها ، وقد ذكر أن عدول الوزارة عن شرائها لما تبين لها من أن قيمة هذه الأوراق لا تدعو إلى اقتنائها لقاء هذا الثمن . ولا شك عندى فى أن تيسير التعليم لأبناء الأمة أولى من هذه الآثار مهما كانت قيمتها ومهما قل ثمنها .

◘ تحدث السيد عبد الرحمن على طه وزير المعارف السودانية من محطة أم درمان فقال : ستتخذ وزارتى الخطوات الضرورية لإدخال اللغة العربية مادة أساسية فى الجنوب بأسرع ما يمكن فى مدارس الوزارة ومدارس الإرساليات ، ولجعل هذه اللغة كذلك وسيلة لتدريس سائر العلوم . وقال إن الوزارة ستنشئ قسماً عربياً بمكتب النشر فى جوبا يعمل على إخراج الكتب الصغيرة والمجلات المصورة التى تساعد على نشر اللغة العربية هناك .

◘ جاء فى مقال للأستاذ خليل شيبوب فى الأهرام بعنوان « التعاون الأدبى » قوله عن التعاون : « وهو مبدأ قد ينجح فى المواقف الاقتصادية والاجتماعية ، وأما الأدبية أو الفكرية فلا ولا كرامة » والذى نعرفه أن هذا التعبير « ولا كرامة » يقال فى خطاب من يهينه المتكلم ، وليس فى المقال مخاطب يستحق الإهانة . فهل يتفضل الأستاذ ببيان ما يقصد بذلك التعبير ؟

◘ تسلمت إدارة التراث القديم بوزارة المعارف من المجمع اللغوى نسخة مصورة من ديوان ابن الرومى المخطوط بدار الكتب . وكانت هذه النسخة لدى اللجنة التى كانت ألفت لإخراج الديوان وكان مقرها المجمع ، ولم تنجز هذا العمل ، فرؤى أن يسند إلى إدارة التراث وديوان ابن الرومى لم يطبع كاملا إلى الآن ، ولعل إدارة التراث توفق إلى نشره قريباً .

◘ صدر أخيراً كتاب « صور من العشق » للأستاذ كمال منصور ، وهو يحتوى على ثلاثة أقسام تمثل ثلاث صور من الحب ، الأولى مغنيات عاشقات كحبابة ، والثانية عذارى فى الهوى كليلى ، والثالثة حب يتصل بالأنبياء ، وختم المجموعة بعاشقة الله رابعة العدوية .

وقد جلا تلك الصور فى ثوب جميل من الفن الممتع .

◘ تصدر بعض الصحف اليومية أعداداً خاصة بمناسبات مختلفة كالمرض والصيف والعيد ، وتكون بطبيعة الحال كبيرة الحجم ، ولكنك تتصفحها فلا تكاد تجد شيئاً تقرؤه ، فهى « بقالة » فى مادتها ، وتنم « البقالة » بورقها .

الشرفات . ثم يتلقى يوسف برقية من والده القروى الثرى يأمره فيها بالحضور إلى القرية فى الحال . وهناك ينهى إليه أبوه أنه غير راض عن سلوكه وأنه لن يعطيه نقوداً حتى يطيع أمره ويتزوج من فاطمة (مديحة) بنت وصفى بك التى ورثت عن أبيها ثلثمائة فدان ، وتقيم مع عمها راشد بك فى الضيعة المجاورة ، فيمارض يوسف فى الزواج من بنت لم يرها ولكنه يضطر إلى الموافقة إزاء تهديد أبيه ، وكذلك تمارض فاطمة فى الزواج من ابن جلال بك لأنها ظنته فلاحاً ساذجاً ، ولكن عمها راشد بك المرشح فى الانتخابات والذى يرجو مساعدة جلال بك يلح عليها ويرغمها . ويذهب يوسف إلى حمص افندى ويبلغه خبر الكارثة ، ويطلعه على صورة الفتاة التى يريد أبوه أن يزوجه إياها ، وهى فى الحقيقة صورة علية بنت راشد بك الدميمة ، وقد اتفقت مع ابنة عمها على إرسالها للخاطب لتنفيره ... ويتفق يوسف وحمص من الجهة الأخرى على خطة لتنفير العروس من يوسف ، فيذهبان إلى منزل راشد بك فى زى قروى وقد حمل يوسف (بلاص عسل) وقفة مملوءة من (كيزان الذرة) واحتضن حمص (لبشة قصب) ، ثم ينتهى المنظر بطردهما من المنزل فى غيبة راشد بك . وفى خلال ذلك يلمح يوسف فاطمة من بعيد وهو لا يعلم أنها المخطوبة ، فيضع خطة لمقابلتها ومنازلتها ويتبين أنها تحب رجلا اسمه ظريف بك النابلسى ، ولكن يوسف يظل يطاردها ويضايق ظريف بك حتى يظفر بها ويتفقان على الزواج ، وتحدث عدة حوادث يتخللها إصرار كل من جلال بك وراشد بك على زواج ابن الأول من بنت أخى الثانى ، ثم يحضر جلال بك ابنه يوسف بالإكراه لعقد الزواج ، وكذلك يكره راشد بك بنت أخيه فاطمة ويأمر بحملها حملا إلى حيث أعدت معدات العقد . وهناك تحدث المفاجأة إذ تنكشف الحقيقة ويعرف كل من يوسف وفاطمة أنه المقصود بالإكراه على الزواج من صاحبه ، فيتعانقان ويكون منظر زفافهما حسن الختام

والذى يتبادر إلى الذهن من اسم الفلم « فاطمة وماريكا وراشيل » . وهو فلم مصرى ، أنه يقدم كلا من هؤلاء الثلاث بخصائصها ، على أن تظفر صورة فاطمة المصرية بأحسن إطار ، ولكنا نراها فتاة عابثة ليس لها مثل تتمسك به ولم ترسم لها غاية نبيلة تهدف إليها فكل ما تريده رجل كهل (ظريف بك النابلسى) لم يقدم لنا الفلم ما يبرر تعلقها به ، ثم هذا الشاب الذى تسعى إليه بعد أن نفضت يدها من ذاك الكهل ، إذ تذهب إلى منزله لتخطب حبه ، أو فى الحقيقة ليرينا المخرج منظرها فى حديقة المنزل وهما يجوسان خلالها حيث تبدى مديحة فتنتها ودلالها ومحمد فوزى يغنى لها ... ولك أن تستمتع بمنظر الجمال وعليك أن تسمع الغناء ! وهذا المنظر يعطينا « فكرة » الفلم كله ، فهو إحدى الخلايا التى يتكون منها ، فأكثر مناظره وأهمها معارض لهؤلاء الحسان الثلاث : مديحة ولولا ونيللى ، جمال ورقص وسحر وفتنة ... والقصة (مفصلة) على قدودهن الرشيقة . وليس لك أن تطلب شيئاً فى الفلم غير ذلك ، حتى محمد فوزى عليك أن تتغاضى عن إدلاله بنفسه وفرحه بشبابه ؛ وقد أخذ اسماعيل يس فى هذا الفلم ملحقاً فكاهياً على الهامش .

والفلم ليس معدوم الغاية القيمة فحسب بل هو على عكس ذلك؛ لأنه يقدم بطلين منحرفين هما : يوسف وفاطمة ؛ ويظل يعرض انحرافهما وعبثهما فى تصوير مغرجيل ، ويظل يعطف عليهما حتى النهاية السعيدة ، فهو وإن تم له الجمال الحسى ، يفقد ناحية الجمال المعنوى الذى يبرز من مناصرة الحق والخير .

وحوادث الفلم تجرى نحو مناظر الرقص والجمال والغناء ، فتعثر فى جريها . ومن هذه العثرات أن نرى يوسف يغنى فى حفلة زفاف ويقود فرقة يحمل أفرادها الطبول من غير أن نعرف صفته فى ذلك . ولا نرى أى سبب يدعو إلى أن يأتى هذا الشاب الغنى غير المحترف ليحيى حفلة زفاف ، ولكن الحادثة تجرى بيوسف إلى هذه الحفلة ليلتقى براشيل التى ترقص فيها . والعجيب أن الفلم يملى علينا إملاء أن تعرف راشيل يوسف على أنه شاب غنى وهى تراه فى زمرة المحترفين حاملى الطبول ...

ولم أقف على سر الطريقة العجيبة التى كان يتبعها يوسف عند ما يعرف اسم الفتاة التى تقع له ، فيدس يده فى جيبه ويخرج الخاتم المنقوش عليه أول اسمها ... فلو فرضنا أنه يحمل معه دائماً التسعة والعشرين خاتماً فكيف ينتقى الخاتم المطلوب ويخرجه بمجرد معرفته الاسم ؟

ويظهر أن المنازل و (الفلات) صنعت فى هذا الفلم على طراز خاص بحيث يمكن القفز من شرفاتها ونوافذها فى غاية اليسر ،

فترى الهارب يسير من النافذة إلى ممر ممهد فيصل إلى الشجرة المعدة خاصة للهرب ... حتى يصل إلى الأرض سالماً غانماً . وهل يليق بفاطمة التي تفر من النافذة حين يمنعها عمها عن الخروج ، لتلاقى حبيبها بثيابها الحريرية المكوية — هل يليق بهذه الفتاة الناعمة أن يمسها أذى أو يذهب صقل المكواة عن ثيابها ، من القفز على الجدران والسقوط على الأشجار ... لا لا يليق غير ذلك لأن المخرج يريد ذلك !

وفى أى مكان من بلاد الله تقام حفلة يبحث فيها فتى عن فتاته ، فيظل يشتبه فى عدد من الفتيات ، يتوسم كلا منهن ويقبلها وهى ساكنة تبتسم ، فيعرف من طعم القبلة أن « المشتبه فيها » ليست فتاته ، وإنما هى تشبهها فقط ... ولو أن « العدوى » الذى يدعوه الناس للبحث عما يضيع منهم ، جرى فى عمله على ذلك النمط الذى جرى عليه بطال الفلم فى البحث عن فتاته ، لأمل دوام البحث عن الضائعات ...

عباس خضر

رسالة النقد

الوزراء العباسيون

تأليف الأستاذ محمد أحمد برانق

بقلم الأستاذ محمود رزق سليم

تحتاج الدول إلى رجال ، من أفذاذ أبنائها ، ليعاونوا ولى الأمر فيها ، على الاضطلاع بمسئولياتها ، والقيام بأعباء الحكم فيها ، وتنفيذ مشروعاتها الإصلاحية ، والسهر على حياطتها ، والعمل على الترفيه عنها ، وإشاعة الأمن والعدل فيها ، ورعاية الدولة ، وتثبيت أركانها ، وتدعيم بنيانها . ويختارون — عادة — ممن حصفت عقولهم ، وصفت أذهانهم ، وبلغوا من الثقافة الواسعة حداً ممتازاً ، وأوتوا من الرأى صائبه ، ومن النظر ثاقبه ، ومن الحيلة نافذها ، ومن الدهاء أوسعه — هذه مؤهلاتهم الأولى — وإن اشترطت مؤهلات ثانية فى العصر الحديث — التى ترشحهم لأسمى منصب فى بلادهم ، وهو معونة السلطان على رعاية ملكه وشعبه .

ومن هؤلاء طبقة الوزراء . عرفتها الدول الإسلامية ، منذ بنى بنو العباس ملكهم المجيد ودولتهم المتيدة . وقد كان الخليفة حينذاك ،هو الدولة . وكثيراً ما كان يلقى بأمور دولته إلى وزيره . ومن هنا كان الوزير — فى الحق — هو الدولة ، وإن كان المفروض أنه يسير فى تصرفاته وفق مشيئة أميره . ومن هنا أيضاً كانت سيرة الوزير جزءاً هاماً من تاريخ عصره ، بل ربما كان لعمل الوزير أثر فيما يلى عصره من العصور .

لهذا ، كانت دراسة حياة وزراء دولة ، أمراً حيوياً ضرورياً لفهم حياتها واتجاهاتها وتصرفاتها . وتاريخهم من أبرز أجزاء تاريخ دولتهم . وهو يلقى أضواء ساطعة على حوادثها ، ويكشف الخبىء من أحوالها ، والمستتر المكنون من وقائعها . وذلك لمكانة الوزير من صاحب السلطان .

ومنصب الوزارة — عادة — من المناصب التى إليها تتوثب الآمال ، ومن حولها تصطرع الرجال . يسعون للوصول إليها ، ويجاهدون لاحتيازها . ولهذا تكثر حولها الدسائس والمؤامرات ، وتنشط الشباك والأحابيل . وهنا تتكشف الأخلاق والنفوس والنيات ، وتشتد المنافسات . ويتألف من هذا كله ، قصص من قصص الحياة ، ممتعة ، فيها كثير من العظات والعبر .

ونقرأ كثيراً من أخبار وزراء الدول الإسلامية ، فى كتب التاريخ العام ، وفى كتب التراجم وكتب الأدب العربى ، وهى كثيرة واسعة ، غير أنها على رحابتها وامتداد آفاقها ، مبعثرة متفرقة ، تحتاج إلى مستوعب يستوعبها ، ومؤلف يجمع شتاتها ، وملائم يلم شعثها ، ومنشىء يسبغ على عرضها ثوباً جديداً من أساليب الإنشاء ، ويضفى عليها من جميل رأيه ، وحصيف نظرته ، ما يوضح للقارىء خفى الأمور فيها ، وغامض الحوادث من بينها .

وقد فطن صديقي وزميلي الأستاذ النابه « محمد أحمد براتق » إلى ذلك كله ، فوجه عناية محمودة إلى الدولة العباسية ، وهي الدولة الحافلة بحوادثها ، الآهلة بعظيم الأمور . وهي أولى الدول الإسلامية التي جعلت « الوزارة » منصباً من أبرز مناصبها . حتى كاد الوزير في سنيها أن يكون المهيمن على أقدارها ، والوجه الفرد إلى مسالكها . — فطن صديقي إلى ذلك ، فاتخذ سير وزرائها وسيلة إلى دراسة تاريخها ، وإلى دراسة هذا التاريخ في أعلى مكانته وأغلى جهاته . وعني بخاصة بعلاقات الوزراء بالخلفاء ، وقصورهم . وكشف الغطاء عن كثير مما يحاك في الخفاء ، بعيداً عن الدهماء . فكان الأستاذ في هذه الدراسة موفقاً ورشيداً .

وقد أصدر الأستاذ من كتابه الكبير «الوزراء العباسيون» الجزء الأول . وقد صدره بمقدمة حافلة واسعة المدى رحبة الأفق طاف فيها طوفة كبرى بالأمة العربية في جاهليتها ، وأثبت كيانها السياسي والاقتصادي . ونعى على من يفرضونها أمة مغلقة الحدود ضئيلة الصلات بمن حولها من الأمم ، تافهة النظام ، محرومة من كل نشاط سياسي أو اقتصادي .

وقد دال على ذلك بأدلة كثيرة قاطعة ، قذف بها في وجوه بعض المستشرقين ومن لف لفهم من أدباء الشرق ، ممن يرمون العرب بالجهل والتفكك ونحو ذلك ، في عصرهم الجاهلي .

وتحدث عن المملكة العربية ونظمها في عهد النبوة وما بعدها حتى جاءت الدولة العباسية ، فاتخذ خلفاؤها لأنفسهم وزراء يعينونهم في شئون دولتهم . وقد شرح المؤلف ، كيف قامت الدولة العباسية ، وركز حديثه بصفة خاصة في ثلاثة رجال من الأعاجم ، وهبوا لها الرأي والنفس ، حتى أقاموا عمودها ونشروا بنودها ، وهم أبو مسلم الخراساني ، وأبو سلمة الخلال ، وخالد ابن برمك . وقص قصة كل رجل منهم وما لابس حياته من حوادث وأهوال ، مشيرا إلى موقف كل خليفة من وزيره ، ومن رجاله ، وأدى إلى ذلك الموقف من حوادث ، وما أدى إليه هذا الموقف من نتائج .

وعلى نمط من هذا ، درس حياة عدد من وزراء الدولة العباسية ، منهم : أبو أيوب الورياني والربيع بن يونس وأبو عبيدة ومعاوية ابن عبد الله ، ويعقوب بن داود ، والفيض بن صالح ، وإبراهيم ابن ذكوان الحراني .

ونود لو عني الأستاذ في أبحاثه بأن يزيدنا علماً بنشأة كل رجل من أعلامه ، وأن يقدم لنا شيئاً عن سني حياته الأولى ، مما يكون له أثر — بلا ريب — في تكوينه وتوجيهه . نقول ذلك لخلو بعض التراجم منه .

على أنني لحظت أن كثيراً من دراسات هذا السفر القيم ، تركزت في حوادث شخصية فردية . وأعتقد أن الأستاذ الفاضل بجوار ذلك ، لو عني بالحوادث العامة وصلتها بالوزير وصلة الوزير بها ، لكان حديثه أرفه وأمتع .

ثم إني أحسب أن الوزراء في الدول العربية الأولى إنما اختيروا لفرط أدبهم وسليم منطقهم وروائع لفظهم وجامع حكمهم . وهذه ناحية لم تتضح وضوحها المرجو في كتاب كتاب صديقنا الأستاذ براتق ، وهو من نعرفه علماً وأدباً . وإني لواثق كل الثقة أنه سيعير هذه الناحية عناية في أجزاء الكتاب التالية .

وأخيراً ، كنت أحب أن يعقد الأستاذ نبذة بين نبذ تصويره الطويل ، يتحدث فيها عن منصب « الوزارة » من الناحية التاريخية ، ومن اختصاصات الوزير ، والفارق بينه وبين غيره كالحاجب ، ومبلغ تقلب هذه الاختصاصات في الدول الإسلامية ودرجة سمو منصب الوزير ، أو صفته في كل منها . إلى غير ذلك مما يتصل بهذا المنصب الهام ولعل الأستاذ أن يلم بهذا الموضوع في مناسبة من مناسبات بحوثه القادمة .

وبعد فقد سد هذا الكتاب فراغاً ملحوظاً في المكتبة العربية والإسلامية . من أجل ذلك نزجي لمؤلفه الفاضل الثناء الجم والشكر المتصل وجزاه الله عن العربية والإسلام خير الجزاء .

(حلوان) محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

البريد الأدبي

أهذا من توارد الخواطر ؟!

فى ١٣ / ٧ / ١٩٤٩ م طالعتنا جريدة المصرى بكلمة لأستاذ فاضـل تحت عنوان « آن الأوان لتخليص مصر من الامتيازات » وقد استرعى نظرى فى هذه الـكلمة بعض جمـل وعبارات نقلت نقلا أو نقلت مع شىء من التصرف من مقـال للأستاذ الـكبير أحمد حسن الزيات نشر فى الرسالة الغراء فى ١٥ أغسطس سنة ٩٣٣ ,م بعنوان « بين النيل والأكروبول » ويستطيع أن يعثر عليه القارىء بسهولة فى كتاب وحى الرسـالة « الجزء الأول » ص ٣٥ وسأنقل هذه الجمل إثباتاً للدعوى وإنصافاً للحق وتقريراً للواقع .

يقول الأستاذ الزيات وهو يصف الشعب المصرى « أسرف فى اللين حتى رمى بالجبن ، وأمعن فى التسامح حتى وصف بالبلادة ، وأفرط فى التواضع حتى نسى الأنفة ، وبالغ فى إكرام الغريب حتى أصبح هو الغريب » .

وهذه الـكلمات بنصها وفصها مذكورة فى كلمة الأستاذ عمر .

ثم يقول الأستاذ الزيات « وليت الذى قاسمنا أنعم الوادى الحبيب يذكر فضيلة الإحسان ويشكر عطف الإنسان على الإنسان! إنمـا يتمتع بخيرنا تمتع الغازى الفاتح ، فى يمناه سيفه ، وفى يسراه قانونه ، فإذا عاملنا احتقرنا ، وإذا عاقبناه انتهرنا ، وإذا ضج المغبون أو صاح المسروق أو صرخ الجائع ضربه « الخواجه » ضربته ، ثم استعدى عليه دولته » .

ويذكر الأسـتاذ عمر هذا الـكلام مع شىء من التصرف إذ يقول « وليت ذلك الأجنبى الذى اغتصب منـا أنعم الوادى الحبيب كان على شىء من الأدب والذوق وأحسن معاملة هؤلاء الذين فتحوا له بلادهم على مصراعيها فدخلها دخول الفاتح الغازى وأصبح فيها السيد المطاع وحرم أهلها سبل الحياة وحجز عنهم اللقمة ، بل تراه ينظر إليهم نظرة الازدراء والامتهان ويعاملهم فى خشونة وقسوة فإذا ضج المظلوم وصاح الجائع ضربه الدخيل ضربته ، واستعدى عليه دولته وحمته قنصليته ، وتلك الامتيازات البغيضة » .

هذا قولى .. فما ذا يقول الأستاذ عمر ؟!

أحمد محمد مصطفى
أستاذ الأدب بمعهد طنطا الثانوى

الضمير الأدبى والكرامة العقلية :

فى العدد الماضى من « الرسالة » قرأت كلمة لأديب فاضـل تحت عنوان « الضمير الأدبى وأين يوجد ؟ » ... ولقد أسفت أن يفلت زمام التعبير من يد الـكاتب ، حتى خطر لى أن أرد عليه فى شىء من القسـوة والعنف ، ولـكننى عدت فقلت لنفسى : ترفق ... فلعل الأديب الفاضل قد نسى نفسـه — وهو فى غمرة الحماسة لفكرته — فاندفع قلمه بغير زمام !

مهما يكن من شىء ؛ فقـد كففت منى رعاية لحق قارئ لاح لى من كلماته حسن الظن حين قال : « وامل الأستاذ المداوى يجيب على كلمتى هذه فى « تعقيباته » ليستأنس به الضمير الأدبى ، ضمير النقد النزيه الذى تعودناه منه » !

يا صديقى ، ما دمت قد تعودت من قلمى نزاهة الضمير ، فلم ارتضيت أن يكون عنوان كلمتك موحياً بعكس هذا الذى قلت؟ أما أنا ، فأؤكد لك أننى لم أتخل عن ضميرى الأدبى فى يوم من الأيام لسبب واحـد ، هو أننى أقدس شيئاً اسمه الـكرامة العقلية ؛ والـكرامة العقلية هى أن يحترم الـكاتب عقله وعقول الناس ، فإذا فعل فقد ارتفع فى رأى نفسه ورأى غيره ، وهذا هو ما أحرص عليه كل الحرص منذ أن تناولت قلمى لأكتب !

تسألنى ما معنى إعادة الصـــفاء إلى النفوس ، وما معنى الاستجابة للصديقين وترك الحقيقة الأدبية تنتحب وتلفظ أنفاسها الأخيرة بين يدى الصداقة ؟! ... معذرة إذا قلت لك إن عبارتك قد صيغت فى قالب خيالى أشبه بقوالب الـكتاب القصصيين ؛ ذلك لأنك — على حد تعبير النقاد القدامى لشعر امرئ القيس — قد وقفت واستوقفت وبكيت واستبكيت على مصرع حقيقة أدبية ليس لهـا وجود ! ... أين هى الحقيقة الأدبية وأنا لم أكن فى موقف الـكشف عن مذهب أدبى جديد ، ولا فى موقف النقد لكتاب أدبى جديد ؟! كل ما حدث هو أن أديباً من الأدباء هاجمنى على صفحات « المقتطف » لأسباب شخصية فرددت عليه بكلمة أوضحت فيها الدوافع الحقيقية لهذا الهجوم ، وإذا كان هناك



روز . . . !

للكاتب القصصى الفرنسى جى دى موباسان
ترجمة الأستاذ أنور المعداوى

« إلى صديقى الأستاذ الكبير الزيات

أنت قدمت موباسان إلى الناس فنقلت الفن صادقاً من لغة إلى لغة ، ونقلت السحر خالصاً من قلم إلى قلم ... قدمته فى قصه الثلاث : « ضوء القمر » و « الحلية » و « جولى رومان » ، فهل تأذن لى فى أن أقدم إليك هذه القصة الرابعة . تحية متواضعة ؟ »

الفتاتان تبدوان للعين غائصتين فى فراش من الزهور ، وحيدتين فى عربة فارهة قد اكتظت بطاقات الزهر ، فهى أشبه بسلة مفرطة فى الضخامة ، وعلى المقعد الخلفى سفطان صغيران قد ملئا بزهور البنفسج « النيسى » ، وفوق فراء الدب الذى يغطى الركبتين أكداس من الورد وزهور الأقحوان والزنبق والبرتقال ، شد بعضها إلى بعض بأشرطة من الحرير يخيل إلى الظن أنها ستهصر الجسدين الناعمين ... ومن الفراش العطر فى العربة الفسيحة لم يكن يظهر من كلتيهما غير الكتفين والذراعين ، وجزء صغير من نطاقين يلتفان حول الخصر النحيل أحدهما أزرق اللون بينا الآخر فى لون البنفسج !

وتنظر إلى سوط السائق فتراه وقد التف بغطاء من زهور الأنيمون ، بينما ازدانت رءوس الخيل بزهور الزينة واكتست المجلات بثوب من زهور الخزامى ... وفى مكان المصابيح طاقتان من الزهر مستديرتان كبيرتا الحجم ، أشبه بعينين تطلان من وجه هذا الحيوان الغريب المتدحرج على الأرض فى هيكل من الزهور !

لون من ألوان الحقيقة فقد عرضت له فى كلمتى الأولى ورفعت القناع عن كل ناحية من نواحيه ... وإذن فكل ما يمكن أن يقال قد قيل بالفعل ، ولو كتبت كلمتى الثانية لما هدفت إلا إلى تأكيد ما جاء بكلمتى الأولى على ضوء الدليل المادى الذى لا يُدفع .

بقى أن أقول لك إنه ما دامت الحقائق قد ذكرت فلا بأس من الاستجابة لرغبات الساعين إلى الخير والداعين إلى الصفاء ... ترى أنكره الصفاء فى الأدب وهو الأمنية الكبرى لكل قارئ وكل أديب ؟ أم أنك أردت أن تثيرها زوبعة فكانت زوبعة فى فنجان على حد تعبير الصحفيين ؟ !

أنور المعداوى

حول تعقيب :

عقب الأستاذ محمد غنيم فى العدد (٨٣٤) من الرسالة الغراء على قول الأستاذ أنور المعداوى (لم أكن أعرف — لم تكن تتح) — بأن جزم بأن هذين التعبيرين بينا الخطأ وأوجب إلحاق لام الجحود ، ولكنى لا أرى لجزم الأستاذ الناقد بالخطأ هنا محلا وما كان استعمال القرآن لهذا التعبير بلام الجحود فى موضع لينفى استعمال تعبير آخر يجرى فى مجراه بغير لام الجحود فى موضع آخر ، ولو حصرنا كل الشواهد فى هذا التعبير — من القرآن الكريم — لرأينا كيف يتخلى عنه الصواب فى رأيه هذا وجزمه ... يقول الله تعالى فى سورة هود (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)

ويقول فى السورة نفسها (تلك من أبناء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) ويقول فى سورة العنكبوت (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) ويقول فى سورة الزمر (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) .

وإنى أسوق هذه الشواهد وأجمعها إلى شاهده لنقول إن وجود لام الجحود يتوقف على وجود الكون المنفى ، ولكن وجود الكون المنفى لا يحتم وجود لام الجحود ، إلا ما رأته الأذن العربية وأوحى به الذوق العربى السليم . والسلام ...

عبد العظيم طه الجبلى

وتندفع العربة إلى شارع « أنتيب » خفيفة الركض ، يحف بها من الأمام والخلف والجانبين جمع من العربات المكللة بالزهور تحمل نساء قد اختفين تحت لجة من بنفسج ... إنه عيد الزهور في « كان » .

وانتهى بهن المطاف إلى شارع « بوليفار » ، وعلى طول الطريق من الشارع الضخم كان هناك صف مزدوج من العربات المزركشة يروح ويجيء كخيط بلا نهاية ... ومن عربة إلى أخرى رحن ينثرن زهوراً تشق الفضاء كالكرات ، ثم ترتطم بالوجوه المشرقة ، ثم ترفرف في الهواء ، وتسقط على الأرض ، حيث يلتقطها جيش من الصبية الصغار . واصطف على الجانبين حشد كثيف من النظارة يثير الضجيج ولكن في شيء من النظام ، لقد بقي كل في مكانه بفضل الجنود وهم يعبرون الشارع على ظهور الخيل ، ويدفعون بأقدامهم أصحاب الفضول في عنف إلى الوراء ، حتى لا يختلط الأوشاب بأصحاب الثراء .

ومن داخل العربات راح كل راكب يتطلع إلى صاحبه ، ويناديه ويطلق عليه قذائف من الورد . وها هي ذي عربة قد غصت بالفتيات الأنيقات في ثيابهن الحمر كالشياطين تتعلق بها الأنظار ، وتنظر فترى أحد الفتيان في ثياب هنري الرابع يقذفهن في نشوة الشوق بطاقة ضخمة من الزهر في غلاف من « المطاط » ، يقذفهن مرة بعد مرة ، وكلما همّ خفضت الفتيات رءوسهن وأخفين عيونهن ، ولكن القذيفة الرشيقة تنطلق في انثناء ثم لا تلبث أن ترتد إلى صاحبها ليقذف بها ثانية إلى وجه جديد ! ...

ويستمر الموكب في طوافه ساعة من الزمن يعتري الفتاتين بعدها شيء من الفتور ، فترغبان إلى السائق أن يلتمس طريقه إلى خليج « جوان » .

وغابت الشمس وراء « الإستريل » ، مخلفة ظلالها القاتمة فوق أرض من اللهب ، على القطاع الجانبي من الجبل الممتد عبر الفضاء . وانبسط البحر الساكن أزرق صافياً على مدار الأفق البعيد ، هناك حيث يمتزج بالسماء ، وبتلك الجماعة التي ألقت مراسيها وسط الخليج كقطيع من الحيوانات الغريبة ، تلك التي تظل فوق سطح الماء جامدة بلا حراك ... حيوانات من عالم الغيب تقوست منها الظهور وتدثرت بدروع من الزرد ، واتخذت غطاء الرأس من عوارض رقيقة كريش الطير ، ولها تلك العيون التي تقدح الشرر حين يهبط الظلام !

وانتثرت الفتيات تحت سماء أشبه برداء فراؤه السحب ، ورحن يتطلعن إليها في استرخاء ثم همست إحداهن قائلة :

— لله ما أرق هذه الأمسيات ! ... ألا ترين أن كل شيء يبدو جميلا يا مارجو ؟

— بلى ، كل شيء جميل ولكن ... ألا تشعرين أن هناك شيئاً ما ينقصنا دائماً ؟

— ما هو ؟ من جانبي ، إنني لأحس السعادة كاملة فلا أرغب في شيء !

— نعم ؟ هكذا تظنين ، ربما ... ولكن مهما كانت السعادة التي تحيط بأجسادنا ، فإننا نرغب فيما هو أكثر ... في هذا الشيء الذي يسعد القلب ! وقالت الأخرى وهي تبتسم : قليل من الحب ؟ فأجابت : نعم !

وساد بينهن الصمت ، ورحن يرسلن البصر مستقيما إلى الأمام ، وعندئذ هتفت إحداهن وتدعى مرجريت :

— الحياة ... إنها لا تبدو لعيني محتملة بغير حب . لكم أشتهي أن أحَب ... ولو من كلب ! هكذا نحن جميعاً ، مهما خطر لك من فنون القول يا سيمون !

وصاحت سيمون قائلة :

— كلا كلا يا عزيزتي ، إنني لأوثر ألا أحَب على الإطلاق على أن أحَب من شخص لا خطر له ! هل تظنين مثلا أنه قد يكون من الملائم لي أن أحَب من ... من ...

وتطلعت سيمون إلى من تستطيع أن تظفر بحبه ، وألقت ببصرها إلى الفضاء المجاور ، وبعد جولة طوت بها كل جنبات الأفق ، هبطت عيناها على زرين من المعدن يتألقان على ظهر السائق ، واستمرت في حديثها ضاحكة :

— من ... من سائق عربتي ؟!

وأجابت مرجريت وقد لاح على شفتيها ظل ابتسامة :

— أستطيع أن أؤكد لك أنه ما من شيء يبعث على التسلية مثل أن يقع خادم في حبك ... لقد جربت ذلك مثنى وثلاث !

ودرن بعيونهن شاخصات ، إلى تلك التي كادت تموت من الضحك ... واسترسلت مرجريت قائلة :

— من الطبيعي أن تلك التي تأبى المزيد من الحب ، تصبح

وهي أكثر النساء قسوة . وعلى النقيض تلك التي تزج بنفسها في طريق لا تجني منه غير السخرية ، لسبب تافه يستطيع أي إنسان أن يلحظه !

وأرهفت سيمون سمعها وألقت ببصرها إلى الأمام ثم قالت معقبة :

— كلا يا سرجريت ، إن قلب خادمي لا ينفع لي غلة ما دام تحت قدمي ... ولكن هل خبرتني كيف أدركت أنهم قد وقعوا في حبك ؟

— لقد أدركت ذلك منهم كما أدركته من الآخرين ... ولذا فهم يصبحون في نظري أغبياء !

— ولكن الآخرين لا يبدون لي أغبياء عند ما يقعون في الحب !

— بلهاء يا عزيزتي ، عاجزون عن الكلام ، عاجزون عن الجواب ، عاجزون عن فهم أي شيء !

— وأنت ؟ ما الذي أثر فيك حتى وقعت في حب خادم ؟ أكنت مسيرة بدافع الملق ؟

— مسيرة ؟ كلا ! ملق؟ نعم أ قليل من الملق ... إن كل فتاة ليسعدها الملق دائماً إذا ما أحبها رجل ، مهما كان هذا الرجل !

— أوه ... الآن جاء دورك يا مارجو !

— نعم يا عزيزتي ، انتظري ... سأقص عليك نبأ مغامرة فريدة وقعت لي ، وسترين كيف أن أشياء بالغة الغرابة تحتل مكانها من حياتنا في أحوال مماثلة ! ... كان ذلك في الخريف منذ أعوام أربعة ، عند ما ألفيت نفسي وحيدة بلا خادمة . لقد جربت من بين الخادمات عدداً يربى على الخمس ، جربتهن واحدة بعد أخرى ولكنهن كن جميعاً لا يصلحن لشيء . ولقد تملكني اليأس من أن أعثر على واحدة ، حتى وقعت في إعلانات إحدى الصحف على خبر فتاة صغيرة تبحث عن عمل ، فتاة تجيد الحياكة ، وتجيد التطريز ، وتجيد تصفيف الشعر ، وتستطيع أن تقدم خير الشهادات على ما تتمتع به من خبرة وكفاية ، وهي في الوقت نفسه تحسن التحدث بالإنجليزية .

وكتبت إلى الصحيفة على العنوان الذي قرأت ، وفي اليوم التالي حضرت الفتاة لتقدم نفسها إلي . كانت أقرب إلى الطول ، رقيقة البدن ، شاحبة اللون ، ينم مظهرها عن خوف بالغ . لها عينان سوداوان جميلتان ؛ عينان تنفثان السحر ، حتى لقد راقت لي على الفور . وسألتها عما تحمل من شهادات فقدمت إلي واحدة مكتوبة بالإنجليزية ، لأنها جاءت — كما قالت لي — من بيت السيدة « رزويل » حيث طوت من عمرها عشرة أعوام ... كانت الشهادة تقرر أن الفتاة قد عادت إلى فرنسا بمحض رغبتها الشخصية ، وإذا كان هناك شيء تستحق عليه اللوم في خلال خدمتها الطويلة للسيدة « رزويل » ، فهو هذا الشيء اليسير من « الدلال » الفرنسي !

وابتسمت قليلا وأنا ألمح ما وراء العبارة الإنجليزية من تورية مهذبة ، ولكنني تعاقدت مع الفتاة على الفور ، وحضرت إلى بيتي في نفس اليوم ، وكانت تسمي نفسها « روز » .

وجاء علي يوم أحببتها فيه إلى الحد الذي ينقلب معه الحب إلى عبادة ... لقد كانت كنزاً من الكنوز ، لقد كانت درة من الدرر ، لقد كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة . كانت في تصفيف الشعر صاحبة ذوق شائق ، وفي تثنية شريط « الدنتلا » على غطاء الرأس أكثر دراية من خير الممتهنات ، وكانت تجيد حياكة « الفساتين » ... أبداً لم أر لها مثيلا في خدمتها لي !

كانت تساعدني على ارتداء ملابسي في سرعة فائقة ، وخفة يد تثير العجب ، ما شعرت أبداً بمر أناملها على بشرتي الرقيقة ، ولا شيء يبدو لي خالياً من اللياقة مثل أن تلمسني يد خادمة ! ... وانغمست على الفور في عادات تتميز بالإفراط في البطالة ، فلكم كنت أشعر بالسرور حين أدعها تدثرني من الرأس إلى القدم ، من القميص إلى القفاز ، هذه الفتاة الطويلة ، الخائفة ، التي تخجل قليلا ولا تتكلم أبداً ! وبعد الاستحمام قد تجففني ، وتدلكني بينما أكون على أهبة النوم أو مضطجعة على الأريكة ... وعلى مر الأيام بدأت أنظر إليها كصديقة بائسة أكثر مما أنظر إليها كخادمة !

وذات صباح أقبل البواب في مظهر يثير الظنون ، معلناً عن رغبته في التحدث إلي ، واستولت على الدهشة ولكنني أذنت له في الدخول .

كان جندياً كهلا يبدو عليه التردد في الإفصاح عما يريد أن يقول ... وأخيراً همس في صوت متلعثم :

— سيدتي ، إن ضابط بوليس المنطقة موجود في الطابق الأسفل

وقلت متسائلة : ماذا يريد ؟

— إنه يريد أن يفتش البيت !

حقاً إن رجال البوليس ضرورة لازمة ولكنني أمقتهم ... ولا أستطيع أبداً أن أعترف بأنهم يزاولون مهنة شريفة ! وأجبت في صوت ألهبته الكرامة الجريحة :

— لماذا يفتش هنا ؟ لأي غرض ؟ إننا لا نعرف السطو ! ورد الحارس قائلا :

— إنه يعتقد أن أحد المجرمين يختفي هنا في مكان ما .

وبدأت أشعر بشيء من الرهبة ، وأمرت بأن يصعد إليَّ ضابط البوليس عسى أن أظفر منه بشيء من الإيضاح ... كان رجلا جم الأدب يزدان صدره بوسام « اللجيون دونير » . وبدأ حديثه معرباً عن أسفه ، مقدماً اعتذاره ، مؤكداً أن هناك مجرماً بين ما لدي من خدم ...

وكدت أصعق ، وأجبت بأني أستطيع أن أشهد لكل واحد منهم ، بل وينبغي أن أقدمهم إليه مستعرضة ليقتنع .

هناك « بيير كورتان » ، جندي كهل ... ليس هو .

سائق العربة « فرانسيس بنجو » ، مزارع ، ابن المشرف على مزارع أبي ... إنه ليس هو .

صبي يعمل في الحظيرة ، من شمباني ، من أبناء مزارعين. أعرفهم ... ليس هو .

ولا أحد بعد ذلك غير هذا الخادم الذي تراه ... إنه ليس واحداً من كل من ذكرت . وإذن فأنت ترى أنك قد خُدعت يا سيدي !

— معذرة يا سيدتي ، ولكنني واثق من أنني لم أخدع .. هل تسمحين بأن يكون استعراضك لخدمك عن طريق إحضارهم هنا ليظهروا أمامي وأمامك ؟ كل خدمك بلا استثناء ؟

وترددت بادىء الأمر ، وأخيراً أذعنت ، ولم أر بداً من استدعاء كل الخدم رجالا ونساء .

وتفحصهم جميعاً في لحظة ثم أوضح : إنهم ليسوا كل الخدم وأجبت قائلة : معذرة يا سيدي ، ليس هناك غير خادمتي الخاصة ، تلك التي لا يمكن بحال أن تخلط بينها وبين أحد المجرمين!

— هل أستطيع أن أراها أيضاً ؟ — من غير شك !

وهمزت الجرس فظهرت « روز » على الفور .. وفي اللحظة التي دخلت فيها الفتاة أرسل الضابط إشارة إلى رجلين قد كانا وراء الباب فلم تقع عليهما عيناي ، وألقى الرجلان بثقليهما فوق الفتاة ثم أمسكا بيديها . وشدت إحداهما إلى الأخرى بالقيود !

وأطلقت صرخة غضب ، ورحت أحاول الدفاع عنها ولكن الضابط أوقفني قائلا :

— هذه الفتاة يا سيدتي ليست إلا رجلا يسمى نفسه « جان نيكولا ليكابيه » ... حكم عليه بالإعدام لإقدامه على جريمة قتل سبقتها جريمة هتك عرض ، ثم استبدلت العقوبة بالسجن مدى الحياة . لقد فر منذ أربعة أشهر ، ومنذ ذلك الحين ونحن نجد في البحث عنه .

أصابني الفزع ، وعقلت الدهشة لساني ، ولم أستطع أن أصدق ... واستمر الضابط في حديثه ضاحكا :

— أستطيع أن أقدم لك دليلا واحداً ، هو أن هناك وشماً على ساعده الأيمن .

وتحققت من صدق هذا القول عند ما كشف عن ساعده ، ولكن ضابط البوليس أردف في لهجة نابية :

— ليس من شك في أنك غير محتاجة إلى الإقناع عن طريق الأدلة الأخرى ؟

قالها ثم انصرف مصحوباً ... بخادمتي !

صدقيني إن أقصى شعور تملكني هو شعور الغضب من أن يُغرر بي على هذا الوجه ، وأن أُخدع ، وأن أُعرض للسخرية .. وصدقيني إنه لم يكن شعوراً بالخزي أن يلمسني ذلك الرجل ؛ وأن يمسكني بيديه ، وأن أبدو أمامه عارية وكاسية ، ولكنه كان شعوراً آخر ... شعوراً عميقاً بالضعة : ضعة امرأة ! ترى هل فهمتِ ما ذا أقصد ؟

— كلا ، لم أفهم تماماً ماذا تقصدين !

— فكري هنيهة ... لقد أُدين ذلك الرجل لأنه أقدم على هتك عرض ... وهذا هو الشيء ... الشيء الوحيد هناك ... الذي أشعرني بالضعة ! ترى هل فهمتِ الآن ؟

ولم تجب سيمون ، بل راحت ترسل البصر مستقيماً إلى الأمام ، إلى حلة السائق حيث ثبتت عيناها في زرّين يتألقان ، وعلى شفتيها تلك الابتسامة الغامضة التي تعرفها الغانيات ... في بعض المناسبات ! !

أنور المعداوي

مطبعة الرسالة